

السبت فات والحد... فات

ل إبراهيم عبد المجيد

السبت فات والحد فات

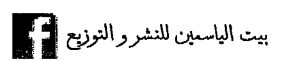


الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية :٢٠١٠/١١٩٩٩

وسط البلد - عمارات معروف - عمارة ب - الدور الثاني - شقة ١٦
ت / ٢٥٧٦٣٩٤٢ (٠٢)
البريد الإلكتروني:

Baitelyasmin@yahoo.com



المدير العام

زياد إبراهيم

إبراهيم عبد المجيد

السبت فات والحد فات

(مقالات)



تصميم الغلاف: زياد إبراهيم

الحياة مأساة و الدنيا مسرح ممل، وعندما نُشاهدها تخدعنا
الدموع عن الحقيقة، والحقيقة أنها مهزلةٌ كُبرى.

نجيب محفوظ

نامت نواطير مصر عن ثعالبها وقد بشمن وما تفنى العناقيد

المُتنبي

وكم ذا في مصر من المُضحكات لكنه ضحك كالبكا

المُتنبي أيضاً

تقديمٌ مُتأخر

من زمان يحثُنى أصدقائى أن أجمع مقالاتى فى كتب، ومن زمان أتردد فى ذلك..

لقد فعلتهُ فى كتابين الأول هو (غواية الاسكندرية)، وكانت أشبه بشهادات عن كيف كتبت رواياتى، والثانى هو (أين تذهب طيور المحيط)، وهو من أدب الرحلات.. فى النهاية اقتنعت.

مئات المقالات نشرتها عبر سنوات فى صحف عربية ومصرية، ولما استجبت للدعوة لم أشأ ان اجمعها كلها، فأنا لا يهمنى أن أجمع مقالاتى كلها فى حياتى، إذ لا أؤرخ لنفسى؛ ولذلك جمعت فى هذا الكتاب ما له صفة الاستمرار، وما يناقش قضايا مهمة لكنها لا تتحرك للأسف.. وخاصة أن حياتنا لا تتقدم.

لم أجد أجمل من أغنية محمد عبد المطلب المطربٍ صاحب الصوتِ القوى والجميل «السبت فات والحد فات» عنواناً لكتابى، محذراٍ من وقوفنا فى برزخ بين الماضى والمستقبل، لا يبدو حاضره جديداً فى شئ ولا نتحرك منه إلى الأمام.. يبدو الأمر جاداً كما يغنى عبد المطلب، لكنه مُضحك.

فى الكتاب رغم ذلك خبرات الحياة، وبشر غرباء وغريبون، كانوا مثل الأحلام التى ذهبوا إليها، فيهم ما فيها من جمال ودهشة..

ومعذرةً عن هذا التقديم الذى جاء مُتأخراً؛ لتأخر استجابتى لجمع مقالاتى..

إبراهيم..

النسيان

النسيان هو النعمة التى حبا بها الله الانسان. وهى فى حقيقتها أجمل النعم. فالجهل مثلا يمكن تعويضه بالعلم. والفقر يمكن تعويضه بالعمل والكسب. والفقد يمكن تعويضه بالصبر. لكن الانسان حتى الآن لم يستطع أن يتغلب على النسيان .انه يحاول وهناك عشرات العقاقير التى تساعد على التذكر لكن يظل النسيان قائماً مهما فعلت ومهما قاومت. فرويد عالم النفس الشهير قدم تفسيراً صائباً للنسيان أن ما تنساه هو ما ليس لك رغبة فيه. فاللاشعور يساعدك ويطرد ما لا تحبه من الذاكرة لتتوازن شخصيتك وفرويد هنا لا يتحدث عن النسيان الذى قد يحدث لأسباب فيزيقيه تتعلق مثلاً بتقدم العمر أو حوادث تصيب المخ بفقدان الذاكرة. فرويد هنا يتحدث عن الشخصية السوية. ولقد قرات منذ زمن قصة قصيرة لكاتب روسى نسيت اسمه للأسف لأسباب من المؤكد أنها تتعلق بالعمر لكنى لم أنس القصة التى كانت عن شخص يشعر بالضيق من النسيان ويشعر بالأذى لانه ينسى أشياء مهمة وناس لا يريد أن ينساهم . شغله موضوع النسيان وضيقه منه فأصبح الصباح وهو يتذكر كل شيئ وظل طول النهار تتوافد عليه الذكريات مليئة بالأحداث والناس من كل صنف حتى اذا وصل الى آخر النهار انفجر رأسه فى كل اتجاه .وهنا تظهر نعمة النسيان .وبالنسبة لشخص من جيلى مثلاً ممكن جداً بسهولة أن تنفجر رأسه اذا تذكر السنوات التى مضت على مصر والمصريين منذ ثورة يوليو. فعلى سبيل المثال سيتذكر ان عمره كله مضى عبر ثلاثة رؤساء جمهورية. ولولا أن الله شخصياً تدخل وأمات الأول ثم سلط

شخصا قتل الثانى، كان عمره كله قد مضى فى رئيس واحد رغم أن الأنظمة الرئاسيه حوله فى العالم المتقدم الذى كنا نأخذ منه ثقافتنا من قبل، تشهد تغيرا مستمراً فى رؤسائها. ولا يتجاوز أى منهم مرتين فى الحكم وبانتخابات حقيقية. وسيتذكر مثلاً أنه بعد حرب السويس انطلقت مصر وصارت قوة لها حسابها فى أفريقيا وآسيا ولعبت دوراً كبيراً فى تحرير كثير من البلدان العربية والأفريقية ثم انهزمت، ورغم الهزيمه فى ١٩٦٧ظلت، قادرة على الصمود حتى انتصرت فى اكتوبر ١٩٧٣.

بعد ذلك جرى ما جرى من نهب لثرواتها، ومن فوضى فى الحياة الاجتماعيه جعلت العشوائيات تزيد عن الأحياء الحقيقيه، وارتفع فيها معدل البطالة ومعدل العنوسة ومعدل الجرائم التى أخذت أشكالاً لم تخطر على بال أحد من قبل وصار فيها أكثر الناس تحت خط الفقر، وسيمشى أبناء جيلى المساكين فى ذكرياتهم فيتذكرون أنهم يوماً استطاعوا أن يقيموا البلاد عن بكرة أبيها عام ١٩٧٧ احتجاجا على زيادات تافهة فى الأسعار قياساً على ما يحدث الآن ولا يتحرك أحد . سيتذكر أبناء جيلى أنهم كانو اذا اشتد عودهم يقرأون الكتب الكبرى التى تجعلهم باحثين عن الحقيقة والعدل، وكيف كان اليسار هو الراية الجاذبة لهم ثم كيف تفرق أهل اليسار، وكيف صار من يشتد عوده من الأجيال الجديدة يولى وجهه شطر جزيرة العرب يأخذ منها قشور الاسلام. سيتذكر أبناء جيلى أن اليسار أصبح فى خبر كان وأن اليساريين الأذكياء انتقلوا من الأمميه الى العولمة ببساطة، وأنهم أيضا صاروا محاصرين بالفكر السلفى الذى لن يستريح الا اذا انهدمت كل البيوت وصارت مصر صحراء؛ فتأتى الخيام من الباديه. سيتذكر أبناء جيلى أنه فى الستينات والسبعينات كانت النساء ترتدى الموضات الأوربيه وكان «الجيب » والميكروجيب» زيا عاديا وكانت المايوهات العادية والبكينى على البلاجات ولم يكن هناك تحرش جنسى كما هو اليوم ولا اعتداء

على المرأة كما هو اليوم، لأن المراة كانت تنطلق فى النهضة على قدم المساواة مع الرجل، ولم يكن ينظر اليها باعتبارها مجرد وعاء جنسى . كانت المرأة ومعها الرجل يجنيان ثمار ثورة تحرير المرأة التى انطلقت بقوة بعد ثورة ١٩١٩. مسكين من تبقى من جيل ثورة ١٩١٩ لأنه سيتذكر أن كل ما حققه لم يعد موجودا. لكن من بقى من هذا الجيل لابد الآن قد نسى فيزيقيا كل شيئ، فالحمد لله على نعمته التى أسبغها على هذا الجيل الذى أخذ مصر ووضعها درة وسط البحر المتوسط فأحس بالرضا والفرح، ثم حين تقدم به العمر نسى فاستراح من هول الذاكرة. سيتذكر جيلى المسكين أنه بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ اكتشف أن كعب أخيل للتجربة الناصريه كان غياب الديموقراطيه، وانه لو كانت هناك ديموقراطيه ما وقعت الهزيمة لأننا كنا سنعرف على وجه الدقة قدراتنا وأنه، هذا الجيل، طالب بالديموقراطيه ولم يتوقف حتى الآن لكنه لم يفز بها، ولا فازت البلاد الا بحرية الكلام فى الصحف التى فى الغالب لا يهتم لها أحد.

لكن ما كان يقال عن شراء الأصوات قبل ١٩٥٢بجنيه أو بنصف جنيه وقيل عشرة قروش أصبح كلاما خياليا فالصوت الانتخابى الآن بثلاثين جنيه ووجبة فى المصالح والشركات وبأكثر من ذلك على باب اللجان .وأحياناً يصل إلى ألف جنيه. مسكين جيلى سيتذكر كيف كان الفصل الدراسى فى المدارس الحكومية بالكاد يصل الى عشرين تلميذا، ولم تكن هناك دروس خارج المدرسه، ثم أصبح الفصل الآن ثمانين وسبعين والسبب أن أهل الاسلام الزائف قالوا تناكحوا تناسلوا والدولة تركتهم يتناكحون ويتناسلون وسرت الدعوة فى الشعب كله الذى تركته الدولة لزوايا وتكايا الوهابية. وبعد أن زاد التعداد عن ثمانين مليونا شتمت الدولة الشعب وقالت له احنا حنعمل لكم ايه عمالين تاكلو وتشربوا شاى وتخلفوا، كأن ذلك حدث فى غيبة عن الحكومة والحكم .سيتذكر أبناء جيلى أن القاعدة فى العلم أن يذهب التلميذ الى المدرسه ومن لا يذهب هو

المزوغ والقاعدة الآن أن لا يذهب التلميذ الى المدرسه ومن يذهب هو المزوغ، من الدروس الخصوصيه. سيتذكر جيلى من أبناء القاهرة أنه كان يقف فى الكيت كات فيرى الهرم والآن لا يرى الهرم الا اذا ذهب اليه، وحتى هذا ليس مباحا فى كل وقت. وسيتذكر السكندريون أمثالى أنهم كانوا يصطادون السمك فى البحر والبحيرة اما الآن فلا وجود للبحيرة، مربوط أعنى، والبحر هجره السمك من التلوث.

وفى النهايه وكما حدث مع الأحياء من جيل ثورة ١٩ ستسأل أى شخص من جيلى متى تولى الرئيس حسنى مبارك الحكم فلا يعرف ومتى تولى الدكتور فتحى سرور رئاسة مجلس الشعب فلا يذكر على الاطلاق لا الدكتور فتحى سرور ولا مجلس الشعب. هل هناك رأس تتحمل كل هذه الذكريات؟ ممكن. لأن الذى نسيته أكثر بكثير. والحمد لله على نعمة النسيان .

مجنون في ميدان عبده باشا

فى النصف الثانى من السبعينيات فى القرن الماضى من فضلك، رغم أننى ما زلت غير مُصدق إننا فى قرن جديد، كنت أنتقل فى السكن المفروش ما بين حدائق القبة و دير الملاك، محطة أتوبيس واحدة بين الأثنين، و كان طبيعياً أن تأخذنى قدماى من شارع الملك أو مصر و السودان إلى شارع أحمد سعيد، و منه أحياناً إلى شارع الجيش ثم العتبة، أو شارع الأزهر ثم الحسين. كانت هذه المنطقة هى المجال الحيوى لى، و ربما هى كذلك لأى شخص يسكن فى حدائق القبة أو دير الملاك، خصوصاً إذا كان شاباً كما كنت و كما كان أصدقائى، على الناحيه الأخرى طبعاً كانت العباسية من شارع رمسيس، لكننى لم أكن أذهب إلى العباسية، لماذا يذهب الأنسان إلى العباسية !؟ لكننى ذهبتُ مرة إلى ميدان عبده باشا القريب من العباسية؛ لأتسلم طرداً بريدياً، عبارة عن مجموعة كُتب و صلتنى من صديقة إمريكية، أول ما لفت إنتباهى فى ميدان عبده باشا، أنه صغير جداً، ليس هناك ميدان فى الحقيقة، و على غير العادة أحسست أن المكان مستقلٍ عن القاهرة، فهو هادئ، هؤاءه نظيف، خالٍ من الحركة، يبدو منسياً، ولا أعرف كيف بدت لى البوستة كأنها موجودة فوق جبل، مع أنها على الأرض .والذى حدث بعد ذلك إننى لم أذهب إلى هذا الميدان الصغير مرة أخرى، ببساطة لأننى تحولت بالسكن إلى الهرم ثم إلى إمبابة؛ فتحولت الخطابات و الطرود إلى عناوينى الجديدة، لكن رائحة الهدوء و الخلاء، و تلك الرؤية الغريبة له كمكان منسى، ظلت معى.. شيئ عجيب حقاً !! لكن هذا ماحدث. و كنت أسمع اسم الميدان يتردد فى الحديث بين أصدقاء كثيرين

يسكنون فى العباسية أو مصر الجديدة؛ فتهب علىّ على الفور تلك الرائحة العجيبة التى شعرت بها ذلك الصباح البعيد. و شيئاً فشيئاً أصبح المكان مثل خرافة قديمة حتى أنعشنى أحد الأصدقاء من الكتاب بحكاية خرافية حدثت له فى ميدان عبده باشا. كان صديقى هذا قد أصدر رواية جديدة. سوف أحتفظ بأسمه. و كان يمر بظروف إنسانية صعبة للغاية. و كان يعرف إن روايته عظيمة و هى عظيمة بالفعل لكنه كان يعرف إن إستقبالها سيكون فاتراً؛ لأنه لا ينتمى لجماعة و لا لجيل من الذين إحترفوا الترويج لبضاعتهم حتى لو كانت فاسدة . و عندما عرف أننى قرأت روايته و أمتعتنى جداً . و إننى حدثتُ بعض الأصدقاء من الكتاب و منهم الدكتور على الراعى رحمه الله الذى كتب عنها بعد ذلك .عندما عرف صديقى هذا واعدنى و قابلنى . و حكى لى كيف أنه منذ أيام كان يعود إلى البيت فى مُنتصف الليل . و أنه حين وصل ميدان عبده باشا أحس بتعب شديد ؛ فجلس على الرصيف مُرهقاً و أحس بأن المكان خلاء واسع جدا رغم إنه صغير . وأخذته الوحشة من كل جانب : فإندفع يبكى بحرقة و هو يدرك أن لا أحد يراه. و لاأحد يمر. لكن فجأة إقترب منه شاب لا يُعرف من أين أتى. و وقف أمامه ثم أخرج من جيبه نصف جنيها وضعه فى كف الكاتب الكبير الذى يبكى ذاهلاً عما حوله. لم يُدرك الكاتب الكبير الحزين الأمر إلا حين وجد النصف جنيه فى يده. رفع عينيه فرأى الشاب يبتعد . إرتبك لحظات ثم ناداه : يا أخ. يا إبنى. يا أستاذ . لكن الشاب واصل الإبتعاد و بسرعة. ضحكنا ذلك اليوم أنا و صديقى الكاتب كثيراً . و قلت له فى القصة جانب ناقص هو ذلك الشاب . هل تراه تصورك رجلا مسكينا فقط ؟ قال : لابد له أنه تصور ذلك. قلت له : هل عرفت شعوره بعد أن ناديته. و لماذا أسرع ؟ قال: قد يكون خاف مني. قلت : لا أحد يعرف. لكن من المؤكد أنه أندهش من وجودك وحيداً. و من المؤكد أنه أحس بعد إنصرافه بأنك شيئ قديم يأتى من التاريخ. و لابد إنك تحولت عنده

إلى حكاية سيحكيها لإصدقائه، شارحاً كيف قابل فى ميدان خال شخصاً مجهولاً كأنه قادم من أعماق التاريخ . و هكذا . و هكذا و نحن نضحك معاً .

لماذا أحكى لكم هذه الحكاية ؟

لأننى ببساطة قررت أن أذهب إلى ميدان عبده باشا فى ليلة من ليالى الشتاء . و اخترتها فى الشتاء لتكون أكثر ظلاماً . وخلاءاً . و إتساعاً . ذهبت و أنا على يقين عجيب بأننى سأقابل شخصاً جالساً مثل صديقى قادماً من أعماق التاريخ أو من مكان وهمى فى الجغرافيا . و الذى حدث هو إننى قابلتُ فعلاً شخصاً قابعاً على الرصيف أمام البوسته وحيداً . واضعاً رأسه على صدره و قد أحاطه بذراعيه . و حوله المصابيح مطفأة إلا مصباح واهن قريب منه . كأنما يُرشدنى إليه . و على الأرض رائحة مياه المطر التى كانت قد نزلت على القاهرة فى المساء . و قريباً منه كوم زبالة تعبث فيه قطتان ما لبثتا ان تشاجرتا . وعلا عواؤهما ثم جريا وراء شيئ صغير لعله فأر . و لم يعودا و أنا أمشى على مهل أقترب من هذا الرجل الوحيد . و فى لحظة فكرت أنه قد يكون صديقى الأديب و إبتسمت لأنه بالطبع بعد حادثة النصف جنيه لن يفعل ذلك مرة أخرى . و لم يكن هناك أديب أخر أصدر رواية مهمة ! و تشجعت و إقتربت من الرجل الوحيد : مساء الخير .لم يرد على الفور . رفع لى وجهه . فلمحت دمعتين تسيلان على وجنتين و تلمعان وسط الظلام . كان نورهما بللورياً و مدهشاً . و كان وجهه غير مألوف لى، مُستدير و أحمر مثل رغيف خُبز خارج للتو من الفرن طهته إمرأة مبروكة من نساء الريف. مسح دمعه و قال : مساء النور . إرتبكت للحظة . على وجهه مهابة تحتاج إلى عشر جنيهات أو أكثر بل ربما رفض أى نقود أقدمها إليه . سألته : هل تحب أن أساعدك ؟ مد لى يده التى بدأت ترتعش . أمسكت بها و حاولت مساعدته على الوقوف . لم

يستطع ، و لم أستطع إيقافه . كان ثقيلاً جداً بدرجة لم أتصورها . و قال فى أسف : شفت . لا أستطيع الحركة .

هل أنت عاجز ؟

إبتسم وقال : لا . لكنى مُتعب جداً . إجلس أنت جوارى . تذكرت أننى ما جئت هنا إلا لأقابل شخصاً ما ، و قد قابلته . فما الذى يمنع أن أجلس معه ؟ جلست جواره لا أبالى بإتساخ الآرض. قال : أنا كنت عارف إنك جاى هنا.

سألته كيف ؟

قال:

-علشان إنت بتحب المكان دا .

قلت

- أنا جيت هنا مرة واحدة زمان ؟!

- ما هو إنت بتحب الأماكن المنسية .

- ربنا يخليك. لكن إنت مين ؟

-أنا التاريخ ..

هكذا قال. إندهشت جداً . ضحكت ...

-متضحكش. أنا بقولك كده. أنا كمان قاعد متكتف بقالى سنين.

- مستنينى ؟

- مش قادر أتحرك. إنتم بهدلتونى.

-إحنا مين ؟

- إنتم فى مصر ، و فى كل البلاد العربية ، فى الشرق الأوسط يعنى.

فكرت ماذا يمنع أن أستمر معه فى الكلام ؟ و من يدرى، ربما يكون كلامه حقيقياً. قال لى :

-إسمعنى شوية.

سمعت. و تغيرت لهجته. فراح يحكى بلغة عربية و ليس بالعامية تاكيداً على أهمية ما سيقول. قال : أنتم ملأتم صفحاتى بالقرارت التاريخية. الحكام و الزعماء. ملوكاً و رؤساء. كل قرار هو قرار تاريخى. وكل حركة هى حركة تاريخية. و كل عطسة. مع إن أهم القرارات هى التى عطلت حركة التاريخ مثل: قرار السلام مع إسرائيل. و مثل غزو الكويت. و مثل مبادرة السلام العربية التى رد عليها شارون بالحرب فى نفس اليوم ، أنا لا يهمنى ما يحدث لكم ، أنتم أحرار. لكن لماذا تقرنون كل ذلك بكلمة التاريخ؟ هذا هو الذى يتعبنى جداً : لأن هناك عملاء مأجورين من كتاب التاريخ يؤرخون بهذه الأعمال : فيضيفون صفحات إلى رأسى المليئ بملايين الصفحات؛ فيتعب مُخى. و تكاد تتلف خلاياه. و بعيداً عن الحكام. فهناك رؤساء الوزارات. و قرراتهم التاريخية التى بعد أيام تكتشف أنها غير تاريخية ، و أنها نسيت و أهملت لكنها تكون قد دخلت التاريخ . إذ تدون فى الوقائع الرسمية للدولة . سواء كانت مصر أو غيرها ؛ فيزداد العبء على رأسى. و يضعف جسدى عن حمله. و غير رؤساء الوزرات هناك الوزراء و مجالس الشورى و النواب. فإذا طرد مجلس النواب عضوين أو أحالهما إلى النيابة بتهمة الكسب غير

المشروع. تخرج الصُحف بعناوين قرارات تاريخية لمجلس الشعب أو النواب أو الشورى أو ما تشاء من أسماء. و الحقيقة أن القرار التاريخى الوحيد يجب أن يكون: طرد أكثر من نصف العدد للسبب نفسه. و أذا أقمتم إنتخابات نزيهه. قلتم: انها تاريخية. مع أنها تحدث فى الدول البرانية بسهولة كمن يشترى ساندويتش . و لا تدخل التاريخ لأنه لا أحد يشترى ساندوتش فيدخل التاريخ. و المشكلة أنكم بعد ذلك تصمون الناجحين بالنزاهة و الراسبين بالنزاهة أيضاً. فلا يصبح الأمر تاريخياً لكنه يكون قد دخل صفحات التاريخ. و زادنى إرهاقاً على إرهاق. و لقد وصل بكم الإستخفاف بى إلى درجة أن المكالمات التليفونية بين المسئولين و الزعماء صارت تاريخية. مع إن الناس تتكلم و تزور بعضها فى كل يوم فى كل الدنيا. و ربما كانت زيارة مريض فى مستشفى أفضل. هذا لا يحدث فى بلادكم فقط لكن فى كل الشرق الأوسط. حتى أصبحت أنا أسير هذا المكان. و لولا إن الناس فى الخارج لا يفعلون مثلكم لمت أنا و إنفجرت . لأنى طبعاً لا أستطيع أن أكفى الجميع . فمن رحمة الله إن الناس فى الخارج عُقلاء أو لا ينتبهون لوجودى إنما ينتبهون لوجودهم. و المسألة زادت إلى حد إن أغنية شعبية لمطرب أعرج الصوت. أصبحت أغنية تاريخية. و أن هدفاً فى مباراة كرة قدم أصبح هدفاً تاريخياً. مع أنك لو حولت مؤشر الراديو إلى محطات الموسيقى خارج الشرق الأوسط . ستسمع أغانى أجمل و موسيقى أجمل . و لو حولت محطة التيلفزيون كذلك خارج الشرق الأوسط . خارج بلادكم . ستجد أهدافاً جميلة لريفالدو . و رونالدو. و باتستوتا . و المذيع عنده رحمة لا يقول أبداً أنها أهداف تاريخية . و كل يوم تصدر وزارة التربية و التعليم قرارات تعليم جديدة . يقولون إنها تاريخية . و التعليم يزداد بؤساً . و لا يبقى إلا أنها زادت فى الصفحات التى فى رأسى. وكذلك حين يحول وزراء الداخلية بعض رجال الشرطة إلى التحقيق لضربهم فى الناس بسبب و بلا سبب . تقولون أنها قرارات إصلاح

تاريخية . ثم يستمر ضرب الناس . و تبقى الصفحات التى أُضيفت إلى رأسى . و حين يذيع التليفزيون مُسلسلاً تختلفون عليه تقولون أنه تاريخى ثم ينساه الناس ؛ لأنه من قبيل الدردشة و لا يتبقى إلا الصفحات الجديدة فى رأسى . و كل مشروع عندكم هو تاريخى . و كل قرار . و كل حركة . و المصيبة أنكم دول كثيرة أكثر من عشرين . مما أرهقنى جداً و يكاد ينهى على وجودى . و الحقيقة أنكم فعلا تعيشون بما تفعلون خارج التاريخ الحقيقى . الذى لا يُفكر احد فى كتابته. فى كل البلاد المحترمة لا يكتبون التاريخ . لكن يصنعونه . و أنتم تكتبون التاريخ فقط . و أنا أريدكم أن تبعدوا عنى بعض الوقت . لقد صرت عاجزاً مشلولاً بسببكم . و عليك أن تكتب ذلك الذى حدثتك عنه . ربما يبعدون عنى و ينسوننى ؛ لأن هناك مهام حقيقية أريد أن أتفرغ لتسجيلها. ثم سكت لحظات . و قال و هو يبكى بحق . أرجوك أن تُسرع فى الكتابة . و الذى حدث أننى لم أسرع فى الكتابة . أسرعت تاركاً المكان . شملنى الخوف بحق . و ندمت أننى أحببت ميدان عبده باشا الذى لم أذهب إليه إلا مرة واحدة من قبل . لقد أسرعت تاركاً المكان غير مُصدق أبداً الرجل . لكن صديقى الكاتب الذى حدثتكم عنه من قبل قابلنى أمس. و قال لى : إن هناك شخصاً مجنوناً فى ميدان عبده باشا . يهتف بإسمك طول النهار و يقول: إبن الكلب لم يكتب شيئاً . هل وعدته بكتابة شيئ عنه ؟ لم أحك لصديقى شيئاً حتى لا يحسبنى مجنونا . وها أنا ذا قد كتبت . و من يذهب منكم إلى ميدان عبده باشا. و يجد الرجل مكانه يخبرنى لكى أكتب مرة أخرى . أما أنا فلن أذهب هناك أبداً بعد اليوم.

الترسانة والبحر .. وزجاجة السادات !

تستحق قصة شركة ترسانة اسكندرية البحرية أن تروى، فهى ليست قصة عادية لشركة بل هى فى أقرب لمعنى قصة أمة ووطن !! وهى بالنسبة لى ، ولا تزال ، السنوات الأجمل فى عمرى ، ففيها استقبلت أول عمل حقيقى ، وفيها قمت بالتدريس لأعداد كبيرة من طلاب الصناعة ،وفيها حملت لوحة الشرف للشركة أول قصة قصيرة نشرت لى، وفيها عرفت علقم هزيمة ١٩٦٧ . وفيها وفيها وفيها حدثت أشياء كثيرة لى وللوطن والأخير هو الذى يهمنى فهو الأول دائما ..

البـــداية :

لقد بدأ العمل فى المشروع مع بداية الخطة الخمسية الاولى عام ١٩٦١. دراسات واستعدادات وتحديد المكان فى المنطقة الممتدة من المفروزة حتى باب ٤٥ فى الورديان . منطقة يحيطها البحر ليس فيها من عمران غير مدرسة الورديان الثانوية ومعهد أزهرى صغير وحوض جاف لإصلاح السفن الصغيرة يتبع الشركة الخديوية. بدأ المشروع بردم البحر ونقل المعهد الأزهرى ومدرسة الورديان التى احتفظ بمبناها الجميل ليكون مقر الإدارة المؤقت لمشروع الشركة .. وظهرت فوق السور الذى بنى حول المشروع لافتة تحمل اسم المشروع لأول مرة وعشرات اللافتات الأخرى لشركات القطاع الخاص

التى تقوم بإنجازه .

فى ذلك الوقت كنت حصلت على الشهادة الاعدادية ولم يكن عبد الناصر قد أعلن عن مجانية التعليم بعد فاخذت طريقى حزينا بحق - لأن حلم حياتى كان دخول الجامعة وكلية الآداب على وجه الخصوص - أخذت طريقى الى مدرسة اسكندرية الصناعية الجديدة الفخمة التى بنتها الثورة جنوب محرم بك لأكون ضمن أول فوج يدخلها. كان المتفوقون حوالى خمسين أنا واحد منهم فتم توزيعنا على قسمين - الكهرباء واللاسلكى - الغريب ان ذلك حدث لنصر حامد ابو زيد فى السنة نفسها لكن فى مكان آخر ودون اتفاق ولا معرفة ذلك الوقت ونجح كلانا فى دخول الجامعه والكلية ذاتها هو فى القاهرة وانا فى الاسكندرية ولقد عرفت انه بكى يوم دخوله الجامعه كذلك فعلت لكن الفن أنقذنى من أن أرى الجامعات وهى تنهار كما رآها هو - نعود الى الترسانة التى التحقت بالعمل فيها فور تخرجى فى المدرسة الصناعية. وكان رقم تعيينى (٥٣٢). أى كنت من أوائل العاملين فيها. لقد تم ردم البحر وبنيت هياكل الورش وبدأ تعيين الفنيين يجرى على قدم وساق لتركيب الآلات والمعدات ، وقابلت الخبراء السوفييت لأول مرة وعرفت الكثير من اللغة الروسية ذلك الوقت ،وكان يقود المشروع واحد من أكبر علماء صناعة السفن هو الدكتور أحمد عفت رحمه الله الذى صار وزيرا للنقل البحرى فى السبعينيات .كان منوطا بى أنا وستة فنيين يقودنا مهندس لا أنساه هو المهندس أحمد عبد السميع وخبير سوفييتى ، أن نقوم بتركيب ماكينات وآلات الورشة الرئيسية للترسانة. وهى ورشة جديرة باسمها حقا فهى وحدها تقع على مساحة أربعة افدنة من خمسة وعشرين فدانا هى جملة المشروع وهى هكذا اكبر الورش .فيها ماكينات تشكيل بدن السفينة على الأرض وفى سقفها الجملونى تتدلى الأوناش المغناطيسية التى تنقل ألواح الصاج الضخمة لتضعها على الآلات الجبارة لتشكيلها .كان حولنا الكثير

من الورش الأخرى يتم تجهيزها بالآلات . ورش الخراطة والحدادة والبرادة ومحطات الكهرباء ومحطات للغازات وورشة للسباكة فضلا عن بناء وتجهيز «قزق» صغير شرق الشركة فوقه سيتم بناء السفن الصغير أو إصلاحها وبناء «قزق «كبير غرب الشركة لبناء السفن الكبيرة وحوض جاف ضخم لإصلاح السفن الى جانب حوض الشركة الخديوية الصغير. وكلمة قزق كلمة لا أعرف مصدرها وهو على كل حال منحدر من الخرسانة متصل بالبحر تبنى فوقة السفينة قطعة قطعة وتكون نهايتها من ناحية البر متصلة بماسورة معدنية ضخمة مصمته متصلة بدورها فى أعلى الأرض بما يشبه الصخره وبعد أن يكتمل بناء السفينة ويأتى موعد تدشينها يقوم عامل اللحام بقطع هذه الماسورة بالغاز فتنزلق السفينة فوق القزق الذى سبقت تغطيته بالشحم وتنزل إلى البحر.

الآمال :

كان علينا نحن المجموعة الصغيرة أن نقوم بتركيب آلات هذه الورشة الجبارة. هذه الآلات التى تأتى إلينا من الاتحاد السوفييتى فى طرود خشبية ضخمة نقوم نحن بفكها وإخراج قطع الآلات وتركيبها حسب الرسومات المرفقة ،على قواعد خرسانية أعدت لذلك . بعض الماكينات مثل ماكينات الدرفلة وتشكيل الصاج تشغل طول خمسة عشر مترا .وكان حولنا شركات القطاع الخاص تقوم ببناء السقف الجمالونى بعمال يتحركون كالقرود ومد كابلات الكهرباء. كان مقاول الكهرباء يونانيا اسمه كاتزيان يقود عماله المصريين شخص مثقف لا أذكر كيف جمعت الظروف بيننا وقت الراحة ليعرف انى مشروع أديب فيناقشنى فى الأدب والفكر وينقلنى الى السياسة التى انتهت بان أعطانى أول كتاب فى الماركسية.

ومنه لله عذبني بطلب العدل الذى لم أجده أبدا .. من ذلك اليوم تعلمت أن هذه الشركة هى شركتنا فصرت بحكم الثقافة قائدا للشباب. وقررنا ان نتجاوز ما هو مقرر للمشروع من وقت فصرنا نعمل الساعات الاضافية وباللجان ونعمل ايام الاجازات بلا أجر ايضا . بل ونقوم بتنظيف الشركة من مخلفات التركيبات. رحنا نسابق الزمن لإنجاز مشروع الثورة. مشروعنا. اولا وأخيرا بروح لا تحدث الا فى الجيوش أيام الحروب ودون ضغط من أحد. فى الوقت نفسه لم ينقطع تعيين الخريجين من كل التخصصات وتم بناء مركز تدريب انتقلت اليه لأدرس الكهرباء للتلاميذ الحاصلين على الاعدادية. وكنت أدرس لهم أيضا مادة الرياضيات التى كنت موهوبا فيها. وهكذا حل عام ١٩٦٧ وقد صارت الترسانة مشروعا مكتملاً وأشهر شركة فى الاسكندرية تدفع أعلى الرواتب وعمالها فنيون مهرة و مهندسوها من اكفأ العناصر والبعثات منها الى الاتحاد السوفييتى والمانيا الشرقية طوال العام. كما استصدر الدكتور أحمد عفت قانونا لمد سن التجنيد الى ثمان وعشرين سنة لطلابها وأن تكون خدمتهم العسكرية بعد ذلك بالقوات البحرية. وكان مشهدا جميلا كل صباح أن ترى عشرات التاكسيات وهى تفرغ عمال الترسانة الشبان المتعلمين ذوى الأجور العالية والملابس الأنيقة الذين ذاع صيتهم فى الاسكندرية .

أما يوم التدشين. تدشين السفينة. فهو يوم عيد فى الشركة وفى الاسكندرية معا حيث تمتلئ محطة الرمل والمنشية بالعمال آخر النهار وهم يشترون الملابس والاحذية بالمكافأة التى حصلوا عليها.

الزجاجة :

لقد جرت العادة أن يقوم بالمشاركة فى تدشين السفينة مسئول

كبير رئيس الهيئة أو وزير الصناعة. وجرت العادة أن تصرف للعمال مكافأة شهر نفس يوم التدشين بعد نزول السفينة بدقائق .وحدث .فى السبعينيات طبعاً. أن قرر الرئيس السادات المشاركة فى التدشين .ارتفعت الأعلام فى الاسكندرية كلها وكانت حرب اكتوبر لم تحدث بعد فلم يكن موقفة طيبا أمام الشعب لذلك حدثت أكبر عملية أمن فى الشركة وحولها . ورسم له طريق لا يحيد عنه بين الورش وداخلها وتم تنظيم العمال بحيث لا يمكن لهم اختراق قوات الأمن والاقتراب من السادات .لكن الذى حدث أنه فور دخوله الورشة الرئيسية تعالت هتافات العمال تحييه. ولابد أن قلب الرجل قد اضطرب أمام هذا الترحيب العفوى وإذا به يترك الطريق المرسوم ويخترق هو الأمن ويقترب من العمال .لقد حدث هرج شديد، وعجز الأمن عن إيقاف سيل العمال الهادر حول الرئيس. لم يقل لنا احد شيئا عن شعور السادات ساعتها لكنه لابد كان فى أعلى درجات الزهو .لكن أعلن فى اليوم التالى أن الرئيس فقد ساعة يده بين الزحام، وبالفعل عثر عليها ممرض بعيادة الشركة سلمها وأخذ مكافاة مائة جنية. لكن الأهم من ذلك أن السادات أخفق فى تدشين السفينة ذلك اليوم . لقد وقف على المنصه المرتفعه التى عليها الضيوف وأمسك بالزجاجه المملوءة بماء النيل التى تتصل بحبل مربوط فى أحد صوارى السفينة. كان عليه فى اللحظة التى تبدأ السفينة فيها فى الإنزلاق أن يترك الزجاجة لتصطدم بقوة فى الصارى وتتناثر مياه النيل فوق السفينة مانحة إياها البركة فى البحر. لكن يبدو أن السادات كان غارقا تماما فى السعادة بهتافات العمال الجبارة ولم يعرف أبدا أنها كانت للحصول على أكبر مكافاة ممكنة لذلك ترك الزجاجة بتراخ ودون تدقيق. ولأول مرة لم تصطدم الزجاجة بالصارى . مرت جواره وظلت تتأرجح دون اصطدام حتى فقدت قوتها مما أشعر الجميع بالتشاؤم حتى بعد أن قفز احد العمال بسرعه الى الزجاجة وأمسكها بيده ثم هشمها على الصارى فصفق العمال وصرخوا

وقفزوا الى الماء خلف السفينة واطلقت السفن الراسية فى الميناء صفاراتها ترحب بالزميلة الجديدة..

الإنتقام :

فى عام ١٩٧٧ قادت الترسانة الاسكندرية فى انتفاضة يناير المعروفة وقاد الترسانة المهندس مسعد الطرابيلى والعامل سيد برجو الذى جعلت له فصلا فى روايتى بيت الياسمين .كانت التنظيمات اليسارية قد دخلت الترسانة بعد النكسة وفى عام ١٩٧٣ قبض عل السيد برجو هذا ومعه عامل آخر بعد توزيع منشورات تحض العمال على الثورة .كنت أنا قد تركت التدريس فى مركز التدريب والتحقت بالعمل بمحطة الكهرباء الرئيسية ليلا بصفة مستمرة لأذهب الى الكلية نهارا. وفى الجامعة خالطت الطلاب الماركسيين وكانت تلك سنوات المطالبة بالحرب. وصرت معروفا فى امن الدولة بالاسكندرية بميولى اليسارية واستجوبت اكثر من مرة لكن هذه حكاية أخرى.

بعد مظاهرات ١٩٧٧ صدرت على الفور أغرب قرارات لإفساد المشروع على رأسها حرمان العمال من تأجيل التنجيد ، حتى انه تم استدعاء حوالى أربعة آلاف عامل فى شهر واحد للخدمة العسكرية فى غير القوات البحرية, كذلك تم فتح باب الأجازات بلا قيود ولا حدود للعمل بالخارج, فهرب الشباب بخبراتهم النادرة وتم تقليص المرتبات والحوافز وتسليم بعض الورش والحوض الجاف لشركات خاصة لإدارته وبدأ الحديث عن الخسارة التى تزداد وتدهورالمشروع ولم يعد للترسانة حضور لا فى حى الورديان ولا فى الاسكندرية ولم يعد أحد يتباهى بأنه يعمل فى الترسانة .

ساعة الإفطار

تستحق ساعة الإفطار أن تكون موضوعا للكتابة. فهى الساعة التى تبدأ الدنيا فيها فى الفراغ من الناس وتتسع الشوارع والميادين فيمكن لك أن تنظر فيها حولك فترى ما لم تكن ترى.

إذا كنت فى ميدان طلعت حرب فسيغمرك الاتساع وتتأمل العمارات القديمة الأوروبية الطراز التى تمتد بك فى الشوارع حول الميدان.

وستندهش أن فى مصر عمارة من هذا النوع لم تفطن إليها من قبل. وطبعا يختلف الأمر اذا كنت فى شارع العشرين بفيصل لأنه مهما خلا من الناس سيظل مزدحما بما تركوه فيه من حركة وأصوات وهرج ومرج وغير ذلك.

على أن ذلك ليس هو الذى أريد أن أتكلم فيه .لأنه الآن حتى فى ميدان سليمان ستجد سيارات تندفع بشدة ليلحق اصحابها بالإفطار. أما إذا كنت فى شارع الهرم فستعجز عن القيادة بعقل وستجد أن الزحام أكثر أمنا من هذه السرعات الفائقة لمن تأخروا ويصممون على الإفطار فى الموعد وفى البيت. أما اذا كنت على المحور أو الطريق الدائرى فالله ينجيك ولا يحدث معك ما حدث مع ضابط الشرطة الكبير الذى للأسف دهسه أوتوبيس مجنون يريد سائقه أن يلحق بالإفطار. سيارات النقل والمقطورات تتجاوز شأنها شأن الأوتوبيسات

والميكروباصات والملاكى المائة كيلو متر فى الساعة. ساعة الإفطار شغلت من روحى زمنا ووقتا وألما حين تركت الاسكندرية إلى القاهرة فى السبعينيات من القرن الماضى وكنت أسكن فى حدائق القبة أحيانا وفى دير الملاك احيانا أخرى قريبا من عملى ذلك الوقت فى قصر ثقافة الريحانى. كنت أعزب ولم أتوقع أبدًا أن يأتى رمضان فأجد نفسى وحدى أتناول افطارى .
فكنت قبل الاذان بدقائق أترك البيت وأنزل إلى شارع الملك أو شارع مصر والسودان الذى لم أستطع أن احفظ له اسما آخر ولم تكن الدنيا زحاما على ما هى عليه الآن ولا أجد طبعا سيارات مسرعة بجنون. لقد وصل الجميع إلى بيوتهم بسلام وأمشى وحدى حزينا كأننى فقدت كل شىء حتى أستقر فى أقرب مقهى بعد أن أكون اشتريت ما أفطر به وأجلس اتناول افطارى وليس فى المقهى غير الجرسونات الذين يتناولون طعامهم أيضا فى صمت. كثيرا ما طلبت منهم أن يشتركوا معى فى الأكل لكنهم قليلا ما وافقوا.
وكان التليفزيون دائما أمامنا. أنشغل أنا به أكثر منهم لا لشىء إلا لأدرك أن الدنيا واسعة وليست على ما أشعر. كثيرا ما سألت نفسى: لماذا لا يشتركون إلا قليلا معى فى الأكل؟ وأدركت أنه دائما كان فى وجهى مسحة حزن وفى عينى دموع تكاد تقفز ليس لأننى غريب فى القاهرة لكن لأنى لم أفهم أبدا أن الإنسان يمكن أن يمضى ساعة الإفطار وحيدا دون أن تقدم له أمه الأكل ودون أن يسمع أباه يتمتم بالدعاء ودون أن يسمع الاثنين معا يطلبان البركة فى أولادهما وفى الرزق الحلال ويكون الصمت فى الدنيا فى هذه الحالة أعظم أنواع الخشوع. كتبت عن هذه الساعة أكثر من مرة فى بعض قصصى وأنا أعرف أن ما أكتب عنه ينجلى عن روحى لكن أبدا لم ينجل عن روحى ذلك الألم ساعة الإفطار وحيدا حتى بعد أن صارت لى عائلة وأبناء. كل ما فى الأمر أن الألم صار شجنا.

ساعة الإفطار يدرك فيها الإنسان أن العالم أكبر منه وأنه لا قيمة لهذه الحياة إلا بين الناس وبين من تحب بالذات. وأنه من نعم الله أن الإنسان لا يمضى عمره وحيدًا وأن الطريق إلى الله قريب جدا وأن الدعاء سيصل إليه.

هل يفرغ الكون من كل هذا الضجيج إلا ليتسع الطريق إلى الدعاء الطيب؟ لقد احتلت ساعة الإفطار مساحة كبيرة من روايتى «لا احد ينام فى الإسكندرية» فأبطال الرواية مسلمين واقباطا يعيشون معا فى بيت واحد تحت نيران الحرب العالمية الثانية ويتبادلون الطعام وهم - إن لم يفطروا معا - يلتقون بعد الإفطار فى المقهى للرجال وفى البيت للنساء وتتبادل النساء الحلوى التى تصنعها المسلمات والقبطيات. والله العظيم كان هذا يحدث قديما ودائما ويسهرون بعد ذلك على الإذاعة التى كانت هى المتوافرة ذلك الوقت أما فى الصحراء فكان مجد الدين ودميان يأكلان معا ولما سأل مجد الدين دميان: لماذا لا تأكل طوال النهار حتى تفطر معى؟ قال دميان وهل أتركك تأكل وحيدا فى هذه الصحراء؟ ولقد رأيت هذا المشهد بنفسى كثيرا جدا خاصة فى الفترة التى سكنت فيها فى حدائق القبة فى السبعينيات .كانت الشقة ملك سيدة قبطية مجاورة لنا فكانت كثيرا ما ترسل إلينا نحن المسلمين طعام الإفطار مما تأكله وكان جميلا جدا.

أين ذهبت هذه الأيام؟ اتذكر الآن قصة من القصص التى كتبتها ولا أنساها. قصة فتاتين فقيرتين أرسلتها أسرتهما لاقتراض مبلغ بسيط من عمهما الذى لم يعطهما شيئا وفى عودتهما إلى البيت داهمهما مدفع الإفطار فجلستا ورسمت الكبرى على الأرض دائرة واسعة وقالت لأختها هذه طبلية ثم رسمت عليها دوائر صغيرة وقالت لها هذه أطباق بها أرز ولحم وخضار وكل شىء. كلى. وراحتا

تأكلان من الخيال حتى شبعتا. ترى كم هم الذين يرسمون هذه الموائد اليوم؟ هل أحصاهم أحد؟ هل نعرفهم على اليقين؟ رغم أنه هناك الكثير جدا من موائد الرحمن؟

خطابات الغرام هل تتذكرونها ؟

خطابات الغرام هل يذكرها أحد ؟ أعنى بها الرسائل المكتوبة التى كانت تطير بين الأحبة وينتظرون من أجلها ساعى البريد وتنطلق البهجة فى وجه المحب ويذهب بها إلى مكان سرى أو أمين لينفرد بها سعيدا ويتقلب مبتهجا على سريره. هذه الخطابات التى حفلت بها أفلامنا الرومانسية زمان والتى غنى لها عبد الحليم حافظ أغنيته التى كانت على شكل خطاب غرامى « جواب » والتى غنت لها ليلى مراد « جواب حبيبى » والتى غنت لها نجاح سلام « عايز جواباتك » وغنت لها قبلهم جميعا رجاء عبده «البوسطجية اشتكوا» وكتب عنها العقاد مندهشا ومحييا الأغنية. وغنى لها أكثر المطربين. هذه الخطابات انتهت الآن تقريبا بعد انتشار الموبايلات واستخدام الانترنت فى الرسائل والشات وانتقال العالم كله إلى عصر آخر يتميز بالسرعة الفائقة فى الاتصال.

لقد كان لهذه الخطابات قيمة عاطفية كبيرة لأنها وهى الوسيلة الوحيدة للاتصال والتعبير الصريح عن المشاعر كانت تستغرق وقتا فى الوصول وكانت عرضة للاكتشاف قبل أن تصل إلى أصحابها ولقد فطن الأديب الكبير يحيى حقى لذلك فكتب روايته القصيرة الخالدة « البوسطجى » التى أخرجها حسين كمال فى فيلم من أجمل افلام السينما المصرية مثّله شكرى سرحان وزيزى مصطفى وصلاح منصور رحمهم الله جميعا ولا أظن أن أحدا شاهد هذا

الفيلم يمكن أن ينسى المشهد الأخير والعبقرى صلاح منصور يطعن ابنته زيزى مصطفى ويقتلها فتصرخ باسم حبيبها « خليل » ويمتد الصراخ ويرتفع وترتفع معه الكاميرا إلى الفضاء فلا يكون مجرد استغاثة المحبة لكنه الكون نفسة يصرخ بصوت الحبيبة.

أبناء جيلى الذين لابد كتبوا رسائل عديدة لأنهم أبناء ذلك الزمن لابد يدركون ذلك أكثر من غيرهم ويتذكرون الليالى التى أنفقوها فى تدبيج الخطاب والكتاب الذى كان يباع على الأرصفة ويحمل عنوان «الرسائل الغرامية». وطبعا كانت هذه الخطابات مادة ثرية فى القصص والروايات القديمة. بل كان بعضها يقوم بالأساس على بنية الرسالة. وكان العشاق يقرأون مبهورين روايات يوسف السباعى التى امتلات بهذه الرسائل وكذلك بعض روايات احسان ومحمد عبد الحليم عبد الله وحتى غيرهم من كتاب الواقعية مثل نجيب محفوظ كانت الرسائل تتسلل إلى أعمالهم الادبية. لماذا أتحدث اليوم عن هذه الظاهرة التى اختفت أمام الشات والرسائل السريعة على الموبايل؟

أنا لا أنعى زمنا جميلا كما تعود الذين يتحدثون عن الماضى. فلا شك أن لهذا الشكل من الرسائل جماله ومشاعر المحبين لا تختلف فى أى عصر وعنصر الزمن والانتظار لا يزال كما هو فقد يرسل المحب رسالة على الموبايل لكن الحبيب لا يرد الا بعد دقائق وتكون هذه الدقائق مثل الأيام زمان لأن من يرسل الرسالة لا يتصور أنه من الصعب الرد عليها بسرعة ولا يفكر مثلا أن الموبايل انتهى شحن بطاريته فجأة أو أن رصيد المحب لا يسمح الآن؟ أقول لماذا أكتب عن الخطابات الغرامية ؟ أنا اكتب حزينا بسبب حادثة قتل نقلتها الصحف عن شاب «عامل» قتل والد حبيبته لأنه رفض أن يساعده فى أن تعيد حبيبته اليه الرسائل التى أرسلها لها. لقد صعب على جدا القتيل.

طبعا، لكن القاتل صعب على أكثر.

إلى هذا الحد لا يزال من يرسل الخطابات ويعطيها هذه القيمة. الحقيقة أن المحبين الحقيقيين لم يعيدوا الخطابات لبعضهم حين كانت القصة تنتهى بالفراق. نادرا ما كان المحب يسعى لاستعادة خطاباته، هى الأنثى التى كانت تسعى لذلك حتى لا تستخدم الخطابات ضدها.

ولا شك أن ابناء جيلى تركوا مثلى خطابات كثيرة عند حبيبات عطلت الحياة الاستمرار معهن . أحزنتنى الحادثة فتذكرت زمنا وبشرا وخفف عنى أن القاتل لم يقتل الرجل متعمدا، فقط صوب له لكمة فى صدره لكنها أجهزت عليه لأنه كان مريضا، مسكين هذا المحب الذى لم يستخدم الموبايل او الانترنت.

شجرة شارع قصر النيل

لم يخطر بذهنى أبدا اننى سأرى هذا المشهد .

كان ذلك حوالى الساعة العاشرة ليلاً وكنت أعبر من الممر الصغير الذى يصل ما بين شارعى طلعت حرب و قصر النيل والذى على ناصيته من ناحية طلعت حرب بائع صحف قديم وفيه مطعم استوريل وسايبر وثلاث بازارات صغيرة ولا شىء اخر.

فى الصباح ترى بائع فاكهة نظيفة وبائع سمك سريح يقف أمامه غلق نظيف به أسماك طازجة الى حد كبير . لا شيئ فى هذا الممر منذ عشرات السنين غير شجرتين احداهما أيضا مرت عليها عشرا ت السنين وصارت جزءا من معالم الممر وهى تقع فى نهايته حين يلتقى بشارع قصر النيل فى مواجهة نادى السيارات تماما. قبل تلك الليلة كنت قرأت وشاهدت فى الصحف مذبحة الأشجار التى جرت فى نادى شباب الجزيرة وكيف اعتبر التخلص من كل فروع الشجرة ونصفها الأعلى تقليما ورأيت فى الممر المشهد نفسه .

الشجرة العتيقه التى كانت معلما من معالم الممر والتى مضت عليها عشرات السنين يقف جذعها عاريا من كل الفروع التى كانت فوقه . يمكن لمن يشاء أن يذهب ليرى . والفروع وجزء كبير من الجذع أيضا تملا الأرض وتسد الممر وعدد من الزبالين يقفون وفى أيديهم حبال وآلات حادة يحاولون جر الجرمه بعيدا ويقف معهم أيضا شرطيان ووجدت نفسى أسال الشرطى من الذى قطع هذه الشجرة فقال

مدير المكتب السياحى وأشار الى مكتب قديم لأميركان اكسبريس تم تأجيره لشركة سياحيه جديدة يقع على الممر وشارع قصر النيل معا . فسألت الشرطى وهل الشرطه هى التى تتابع المهمة قال لا أنا ليس لى علاقة .ما يحدث يتبع الحى وهم يقولون أنهم أخذوا موافقة الحى . حى قصر النيل .ازداد غيظى وانفعالى من هذه الأحياء التى تعطى التصاريح بقطع الاشجار وتوجهت الى حملة الشرطة التى تقف فى ميدان طلعت حرب وأخبرتهم بما جرى وجاء معى أحد الضباط واختفى الشرطيان السابقان. أصابنى جنون من هذا التخريب الجانى واتصلت بأكثر من صحيفة لتأتى وتصور المشهد وقابلت الشاعر عزمى عبد الوهاب الصحفى فى الأهرام العربى والتقط بعض الصور بالموبايل وكذلك فعل محرر الدستور وروزاليوسف وتأخرت أكثر من صحيفه وكان هناك عطل فى الموبايل الخاص بى فلم استطع التصوير بنفسى

ثم جا ء الضابط الثانى الذى بدأ فى تحريز الأدوات التى تم بها قطع الشجرة وأخذ بياناتى، وانصرفت غير مصدق أن الحى يقدم على قطع شجرة قديمة فى هذه المنطقة. متأثرا من ضيق أصحاب البازارات الذين كان أحدهم يمشى فى الممر حزينا يضرب كفا بكف ويقول لنفسه «يقطعوا شجرة بقالها ييجى ميت سنة» واذا كان الحى قد أصدر أمرا بالتقليم فلماذا لم يرسل من يشرف عليه واذا كان لم يصدر أى أمر فكيف يجرؤ شخص على فعل ذلك والشجرة فى الممر ولا تضايق أحدا فى شيئ ؟

تركت الضابط يأمر بعدم نقل أى شيئ من مكانه حتى يكمل عمله وأمضيت ليلة حزينه أفكر ما هذه الكراهية للأشجار فى مصر ؟

الأكل وسنينه..

عادة وأنا أقود سيارتى استمع إلى الموسيقى والغناء للذين أحبهم فقط. أم كلثوم . عبدالوهاب. عبدالحليم. فيروز. فايزة أحمد وجيلها. وأيضا عبدالمطلب. وأحيانا الشيخ ياسين التهامى.وعندما يصاب المسجل بعطل استمع إلى محطة الأغانى من الإذاعة مباشرة. لأمر ما تعطل المسجل ووجدت نفسى مضطرا لسماع محطات إذاعية أخرى لتعذر الوصول لمحطة الأغانى.

كنت فى طريقى إلى الإسكندرية وحدى وأريد صوتا معى. أى صوت. تنقلت بين أكثر من محطة اذاعية فلم أجد إلا أحاديث عن الرياضة. كرة القدم فقط والتحكيم والجمهور. ومن أغرب ما استمعت إليه من أحد الضيوف عن الفرق بين الجمهور المصرى الذى لا يكف عن المشاكل وإثارة الاضطراب والجمهور الأوروبى - لا حظ السؤال الذى يحمل الإجابة فالجمهور المصرى من السؤال مثير للمشاكل والجمهور الأوروبى لا يثيرها - ما علينا. الأغرب كانت الإجابة من ضيف الحلقة الذى لم أتشرف باسمه إذ قال إن الجمهور فى الخارج يعرف من البداية أن هذه كرة وهذا ملعب وهذا حَكَم وهذه مدرجات للجمهور.

أى والله هكذا قال والمذيعة قالت يا سلام. ما علينا. ابتسمت وانتبهت للطريق الصحراوى الملىء بالأعمال. وتذكرت الجمهور الإنجليزى مثلا الذى يثير الشغب فى الملاعب وخارجها والمظاهرات والمعارك. ماعلينا مرة أخرى. تحولت إلى محطة أخرى ربما لا يكون

عليها برنامج كرة ووجدت شخصا يتحدث عن الغذاء وبدا من صوته أنه يتحدث عن علم وقال كلاما جميلا عن ثقافة المستهلك المصرى الذى ألتمس له العذر لنقص هذه"الثقافة الغذائية وإن كان ذلك النقص يجب ان يختفى لأنه مهما بلغت أجهزة حماية المستهلك من قوة لن تستطيع أن تنقذ المواطن من أخطائه. هكذا قال وهو قول صحيح. ومما قاله إن المستهلك قد يفرح وهو يشترى طماطم من كونها كلها حمراء وفى حجم واحد والحقيقة أن ذلك يعنى أنها غير طبيعية.

فالطماطم الطبيعية التى خلقها الله تطرحها الشجرة متفاوتة الأحجام والأشكال واللون أيضا والأمر نفسه بالنسبة للخيار مثلا. هذه منتجات صوب (جمع صوبة) وأسمدة كيماوية. وتحدث عن الجبن الأبيض فقال إن كيلو الجبن يتم إنتاجه من أربعة كيلو لبن وإذا كان كيلو اللبن بخمسة جنيهات فمعنى ذلك ان كيلو الجبن يحتاج إلى عشرين جنيها من اللبن وإذا أضفنا إلى ذلك العمالة والأجهزة والمكان والنقل يمكن أن نتصور سعر كيلو الجبن الحقيقى ومن ثم إذا وجد الشخص كيلو الجبن بخمسة عشر جنيها مثلا فلا يجب ان يشتريه ولا يفرح لذلك لأنه فى هذه الحالة هناك غش قد يصل إلى استخدام بودرة السيراميك.

وهكذا راح يضرب الأمثلة ولأن فى الطريق اصلاحات كثيرة يلزم الانتباه إليها ضاع منى كثير من كلامه الجميل وبدا أن المستهلك صعبان عليه فعلا لأنه لا يهتم بهذه الثقافة التى صارت ضرورية جدا. وبعد قليل من الوقت وانتهاء البرنامج وجدت نفسى أفكر فى أشياء كثيرة من الطعام الذى نأكله ثم أخذنى الطريق كثير الاعوجاج وفكرت كم جمعية أهلية لحماية المستهلك نحتاجها فى مصر ومن يستطيع أن ينشر هذه الثقافة كلها وسط شعب طيب يرمى حموله على الله سبحانه وتعالى.

وعادت المحطة إلى برنامج آخر عن اللحوم وأسعارها المجنونة هذه الأيام وقيل كلام كثير عن عدم جدوى اللحوم الحمراء للكبار وإمكانية الاستغناء عنها اللهم الا للأطفال والصغار وكان السؤال هل هناك من جدوى لمقاطعة اللحوم وعاد الحديث مع شخص آخر سيدة هذه المرة . عن ثقافة المقاطعة وبدا واضحا من كلام السيدة الفاضلة ان المقاطعة ثقافة لم يتعود عليها المصريون لكنها صارت شديدة الأهمية الآن خاصة ونحن نعيش فى نظام رأسمالى.

أعجبنى الكلام لكن البرنامج انتهى أيضا بالأسف أن هذه الثقافة لم يتعود عليها الناس. ولقد سألت الجزار الذى أتعامل معه وأثق به مرة عن سر هذا الغلاء غير المفهوم للحوم فقال لى إن الأعلاف غالية والزيادة السكانية لا تقابلها زيادة فى الاستثمار فى هذا المجال ولعن الذى قضى على مشروع البتلو ولما سألته عما يقال عن اللحوم المستوردة قال إن المشكلة التى لا يعرفها الكثيرون أن كثيرا من اللحوم المعلقة عند جزارين هى لحوم مستوردة كانت فى الأصل أبقارا استوردت حية وذبحت فى الجزر المعد لذلك ثم يأخذها الجزارون ولا يلتزمون ببيعها باعتبارها مستوردة. وطبعا هذا أمر لا يحتاج من المستهلك لثقافة لأنه مهما أوتى منها لن يمتلك القدرة على التمييز لكنه أمر يحتاج إلى ضمير وإلى أجهزة رقابية حقيقية

وانتهى الطريق وفكرت فى اللحوم التى يبدو من كثرة الحديث عنها فى الصحف والإذاعة والتليفزيون أن الشعب المصرى كله يأكل اللحوم بينما الحقيقة أن أغلبيته تسمع عنها. تذكرت صديقا لى فى السبعينيات من القرن الماضى كان يعشق الضحك والنكت قال لى إنه يقف كل يوم نصف ساعة أمام الجزار يتفرج على اللحمة حتى لا ينسى شكلها أبدا فإذا جاء يوم يستطيع أن يشتريها لا يخدعه احد. ضحكنا ذلك اليوم وأضحك الآن لأن سعر اللحم فى ذلك الوقت كان سبعين قرشا للكيلو.

كان مرتبنا كخريجى جامعات يكفى لشراء أكثر من خمسة وعشرين كيلو أما الآن فمرتب خريج الجامعة بالكاد يكفى اثنين كيلو أو كيلو واحد لهؤلاء الذين تظاهروا من مركز المعلومات لأن مرتبهم تسعة وتسعين جنيها والذين قال عنهم الدكتور فتحى سرور نغلق الجامعة مادامت هذه هى نهايتها وقال عنهم الدكتور نظيف إنه لم يكن يعرف أن هناك مرتبات على هذا النحو ورسمهم أحد فنانى الكاريكاتير (كأنه يرد على هذا الكلام) يقفون أمام أحد المسئولين فيقرر أن يزيد مرتبهم إلى مائة جنيه بدلا من تسعة وتسعين.

يناير 77... ليلة القنبلة!!

يناير١٩٧٧وشتاء القاهرة القارس.ذلك الوقت.وأنابعد لم يمض على وجودى هنا فى القاهرة غير ثلاثة أعوام ، أحن فيها الى شتاء الاسكندرية الدافئ. ورغم ذلك أمضى الليل كله فى شوارع القاهرة القديمة. ماذا يفعل شاب أعزب يعيش فى شقة مفروشة مع عدد من الطلبة الأصغر سنا والمنكبين على دروسهم ليحققوا آمال أهلهم فى الريف؟

كانت الشقة بدير الملاك ، وعملى فى قصر ثقافة الريحانى بحدائق القبة ، واخترت العمل ليلا لتبدأ بعده رحلتى مع أسرار القاهرة !

يناير ١٩٧٧ والحكومة قد أقدمت فجاة على رفع أسعار السلع الاستهلاكية . والمعارضة المصرية لسياسة الرئيس السادات تملأ الجامعات . من الطلبة اليساريين على اختلاف انتماءاتهم وكذلك كان الاسلاميون على قلتهم ذلك الوقت والذين كانت الدولة تشجعهم على ضرب اليسار ولا تدرى أنهم سيكبرون ويضربون الدولة نفسها ويقتلون السادات نفسه للأسف .

يناير ١٩٧٧ وأنا أعود من رحلتى الليلية كل صباح لأنام . لم أحب القاهرة أبدا بالنهار ، وصحوت ظهرا كالعادة ، نزلت من الشقة لأتناول افطارى فى محل ألبان «أبو حشيش » الشهير بدير الملاك . أنتهى من الأكل لأجد الهرج فى شارع الملك ، ملك مصر والسودان ، قادما ناحيتنا . شباب يطاردهم البوليس . ماالذى يحدث ؟ المظاهرات اندلعت فى كل البلاد من الأ سكندرية الى أسوان ولا تزال جامعة

عين شمس تقذف بطلابها من العباسية الى شارع رمسيس فى اتجاه نص البلد . لم أعد الى البيت الا فى اليوم التالى بعد حظر التجوال .مشيت مع المتظاهرين . معارك فى غمرة ومعارك فى ميدان رمسيس . هتافات وحشود من كل الأزقة وقنابل مسيلة للدموع . فى غمرة لم يستطع البوليس ايقاف المسيرة .فى رمسيس كانت المعركة أكبر . تفرقنا فى الأزقة بين شارعى كلوت بك والجمهورية والبوليس خلفنا . سكان الأزقة اشتركوا فى الهجوم على البوليس من النوافذ بكل ما يستطيعون قذفه خاصة جرادل الماء . الجو بارد والأرض موحلة والشمس طالعة تتفرج حانية !وبالليل كانت المعركة كبيرة تعب فيها البوليس عند باب الخلق والمحكمة الشهيرة . بتنا فى ميدان التحرير بعد ذلك ليبدأ يوم جديد . جاءت ناحيتى قنبلة مسيلة للدموع ونحن قرب غمرة مرة اخرى . تفاديتها وتابعتها وهى تسقط على الأرض وتتدحرج ولم تنفجر . جريت اليها ، أمسكتها ولا أعرف أى شيطان وسوس لى أن احتفظ بها . كانت فى حجم علبة السفن أب التى لم تظهر بعد .كانت زرقاء جميلة عليها بلد الصنع ، الولايات المتحدة الامريكية . وظلت معى ونحن نقطع منطقة الظاهر الى ميدان باب الشعرية حيث كانت المعركة أكبر احترق فيها أكثر من أوتوبيس وأصيب أكثر من شخص بالرصاص الحى للبوليس وأعلن حظر التجوال من الساعة الثانية ظهرا فتفرق المتظاهرون . مشيت وحدى فى الأزقة ممنيا نفسى بالوصول الى شارع رمسيس لكننى كنت أنحرف كثيرا مع الأزقة فوجدت نفسى فى شارع رمسيس حقا ولكن من شارع الفجالة . علىّ أن أعبر ميدان رمسيس الذى صار خاليا من المتظاهرين والبوليس وبدأت تظهر فيه بعض العربات العسكرية وبعض الدبابات .عبرت الميدان بسرعة الى محطة كوبرى الليمون . سأذهب الى دير الملاك حيث أسكن ماشيا على شريط قطار المرج . هنا لن يتواجد لا جيش ولا بوليس . وكانت القنبلة معى !! لقد قررت أن احتفظ بها وأفرغها

فى الصحراء وأنا فى طريقى الى الاسكندرية واستخدمها بعد ذلك « مقلمة» تصورا!! وتذكرنى دائما بما جرى . جنون غريب كان سببه المباشر جمال القنبلة !!وصلت ماشيا الى محطة الدمرداش ونزلت بسرعة قاطعا شارع الملك داخلا فى الأزقة الى بيتى قبل أن يفطن لى أحد .

لا يوجد فى البيت خبز . فقط أكثرمن علبة سلمون وبرتقال وبيض . الطلاب اللذين يسكنون الشقة أيضا سافروا الى بلادهم حيث تعطلت الدراسة .هناك فرن فى الزقاق القريب لا يمكن أن يصل اليه البوليس أو الجيش . نزلت . زحام شديد حول الفرن . خرج شخص من تحت الزحام يحمل عشرة أرغفة فهجم عليه الجميع . أى والله . لم يبق فى يده غير لقمة !عدت مندهشا وقررت أن آكل بلا خبز . حاف . وفعلتها . أكلت سلمون وبعده البرتقال وجلست أفكر ماذا أفعل .سيتم القبض على جميع اليساريين الليلة . وأنا أنتمى للحزب الشيوعى المصرى السرى . ذلك الوقت .وفى غرفتى أعداد كثيرة من مجلة الانتصار . مجلة الحزب السرية . وأعداد أقل من مجلة كتابات مصرية. مجلة الحزب أيضا التى تصدر فى بيروت وتهرب الى مصر . كان عضو اللجنة المركزية مبارك عبده فضل يحتفظ بها عندى وكنت بدورى أوصل بعضها لأعضاء الحزب فى الاسكندرية فى زياراتى العادية لأهلى فلا أكون موضع شك من الأمن .أين أخفيها الان ؟لا يمكن الانتقال بها الى مكان اخر . أحرقها . وفعلا حرقتها وبالليل قررت عدم المبيت فى الشقة .قررت أن أبيت عند صديقى المرحوم الشاعر أحمد الحوتى الذى كان مديرا لقصر الثقافة الذى أعمل فيه. كان يسكن فى محطة التعاون قريبا من القصر ومنى .قررت أن يحدث ذلك فى منتصف الليل . وبالليل جعت فسلقت ثلاث بيضات ولا أعرف ماالذى جعلنى أكنس الشقة . خرجت بالزبالة الى السلم وبحركة لا شعورية أخذت الباب فى يدى فأغلق وأنا على السلم .نزلت الى الساكن تحتنا وأنا ارتدى البيجامة . رجل فى أسرته فتاتان

جميلتان لا يحب التعامل معنا بل يعاملنا بجفاء.ذ ربما حتى لا يفتح الطريق بيننا نحن السكان الشباب وبنتيه .كان التليفزيون يذيع مسرحية مدرسة المشاغبين وكنت أسمعه من خلف الباب وأنا أدق الجرس .سمعت صوت الرجل يصرخ « مين » . طبعا من يمكن أن يطرق الباب فى حظر التجوال ؟ طمأنته أننى الساكن فوقهم وأننى احتاج الى شيئ أكسر به شراعة الباب الزجاجية لأفتح الباب من الداخل لأنى نسيت وأغلقت الباب خلفى وأنا أضع الزبالة على السلم .نظر لى من الشراعة ورآنى بالبيجامة فاطمأن قليلا .بعد قليل أرسل معى ابنه الصغير ومعه مفك وجاكوش صغير . طرقة واحدة على الزجاج وانكسر ومددت يدى وفتحت الباب من الداخل ودخلت لأجد البيض المسلوق على النار يصطدم ببعضه وبجدران الاناء الصغير بصوت عالى بعد أن تبخرت كل المياه . أطفأت البوتاجاز ولما شم الولد الصغير رائحة شياط كبيرة من أثر الأوراق التى حرقتها وسالنى عنها قلت له البيض المحرق ! نزل الولد وأكلت البيض وأخذت القنبلة وتوكلت على الله فى طريقى الى أحمد الحوتى من بين الأزقة التى لايمكن أن يكون بها جيش ولا بوليس !!

فى منتصف زقاق طويل وجدت عددا من الشباب يأتون مسرعين . لقد ناوشوا رجال الجيش فى شارع الملك الذين بدورهم أتوا وراءهم فى سرعة واغلقوا الزقاق من الناحيتين . اختفى الشباب فى البيوت ووقفت أنا مندهشا من نفسى والقنبلة فى يدى . ماذا تفعل يامجنون ؟ قلت لنفسى ودخلت بيتا مهجورا قديما صغيرا شبه مهدم وتركت القنبلة تحت السلم وخرجت أمشى بثبات ناحية آخر الزقاق لأقابل قوات الجيش.عرّفتهم بنفسى وقلت لهم اننى مضطر للخروج ليلا والذهاب الى صديق غريب مثلى عن القاهرة لكنه مريض ويسكن فى محطة التعاون القريبة ويحتاجنى. الجو بارد حولنا وبدا لهم أنى صادق فتركونى أمر على أن لا اترك الازقة أو أدخل شارع الملك.

وصلت الى أحمد الحوتى الشاعر الجميل والصديق الأجمل رحمه الله وما أن رآنى حتى راح يرقص فى الشقة الصغيرة وظللنا طوال الليل نضحك . فى الصباح ذهبت الى السيدة زينب أطمئن على صديقى الكاتب عبده جبير فوجدته قد قبض عليه فأخذت طريقى الى جزيرة بدران لأطمئن على الشاعر الصديق سمير عبد الباقى فوجدته قد قبض عليه وفى عودتى وأثناء عبورى الشارع فى ميدان أحمد حلمى أمسك بذراعى ضابط شاب فتأكد لى القبض علىّ لكنى رأيته يرتدى البدلة الميرى وبرتبة ملازم أول فتشككت وقبل أن أتكلم طلب منى دفع غرامة عبور الشارع من غير مكان عبور المشاة، وكانت ٢٥ قرشا ذلك الوقت فتنفست الصعداء وأخرجت من جيبى جنيها قدمته له، ولم أنتظر الباقى وهو ينادينى وأنا ابتعد وأهتف له أن يعطى الباقي للعسكرى . كانت هذه الغرامة مقررة ذلك الوقت ولم تطبق علىّ أبدا الا ذلك اليوم وابتعدت أضحك وأخذت المترو الى حدائق القبة لاطمئن على صديقى صلاح ذكى الناصرى الجميل الموجود بالخليج الآن فوجدته أيضا قد قبض عليه فأخذت طريقى الى البيت قبل موعد حظر التجوال منتظرا أن يتم القبض علىّ فى اى لحظة، ولكن لحسن الحظ لم يحدث .تذكرت فى البيت أن لدىّ حوارا كنت أجريته مع الأديب الراحل العظيم نجيب سرور ملأ كراسة كاملة ولم أنشره أبدا لأنه مليئ بالشتائم لكل الأنظمة العربية وطبعا نظام الرئيس السادات على رأسها . بالليل أخذت طريقى من الزقاق نفسه الذى مشيت فيه بالأمس ومعى الحوار لأخبئه عند صديق اخر غير أحمد الحوتى أضاع الحوار فيما بعد لكن هذه حكاية أخرى. وأمام البيت المهجور وقفت أفكر فى القنبلة . دخلت لأخذها مرة أخرى فلم أجدها .هل كنت حقا سآخذها مرة أخرى ؟ لا أعرف. وكل عام، فى يناير أفكر فى البيت المهجور ومن ياترى أخذ القنبلة وماذا فعل بها ؟ أفكر فى نفسى، شاب فى وسط المظاهرات الصاخبة يفكر أن يحتفظ بقنبلة ليصنع منها مقلمة

يضعها على مكتبه . أقول هذا جنون فنان وليس رجل سياسة . لذلك لم تمض شهور إلا وتركت الحزب الشيوعى المصرى وكل عمل منظم . هناك المئات يمكن أن يعملوا بالسياسة وينقلوا المنشورات ويوزعوها . بل الالاف .لكن عشرات هم الذين حباهم الله بموهبة الإبداع فلماذا أضيع ما أنعم الله به علىّ من موهبة .

ليلة من الماضي الجميل

دعيت لحضور احتفالية بمرور ثلاثين عاما على وفاة المناضل المصرى الكبير زكى مراد فى نقابة الصحفيين .قامت الاحتفالية تحت رعاية لجنة الحريات التى يرأسها الاستاذ محمد عبد القدوس .كان ذلك أول ما يلفت النظر خاصة أن محمد عبد القدوس عرف بميوله الاسلامية لكنه لم يكن ملفتا لنظرى ذلك أنى رغم عدم وجود صلة مباشرة بينى وبين محمد عبد القدوس أراه من زمان شخصا حالما ومثاليا على غير العادة فيما نراه من متشددين يرفعون شعار الاسلام .كونه حالم ومثالى يدل عليه ببساطة كثير جدا مما يكتبه وأيضا ما أخذه البعض عليه من وقوفه وحيدا بالميكروفون على سلم النقابة يدعو الى التغيير والثورة . ثم انه وهو ابن العز والعائلة الكريمة لا يبدو متكبرا بل نضح الاسلام الحقيقى عليه كل سماحة ممكنة .ثم من ينكر قيمة والده العظيمة وجده وجدته رحمهم الله.

ذهبت لحضور هذه اليلة فالمرحوم زكى مراد لم يكن وجوده فى حياة جيلى بالوجود العابر . ورغم أنى لم أسعد بلقائه بشكل مباشر .لكنى كنت أعرف نضاله الوطنى منذ اللجنة العليا للعمال والطلبة فى مصر عام ١٩٤٥ ودوره فى تأسيس الأحزاب الشيوعية مع فريق عظيم من أبناء النوبة مثل مبارك عبده فضل الذى كان لى حظ اللقاء والعمل معه كثيرا فترة انتمائى للعمل السرى فى السبعينات ومحمد خليل قاسم الذى لم ألقاه أبدا لكن كانت روايته (الشمندورة) ولا زالت فتنة للأدب الروائى المصرى والعربى .كانت أسماء زكى مراد ونبيل الهلالى وعبد الله الزغبى

هى الأسماء الاكثر شهرة بل والأساسية فى الدفاع عن الشيوعيين واليساريين عموما الذين انشغل بهم النظام كثيرا فى حقبة الرئيس السادات وبعده بقليل ، وكانت تلفق لهم القضايا كل يوم تقريبا وكانوا هم فى الحقيقة المناضلون الذين يملأون الساحة فكانوا قادة انتفاضة يناير عام ١٩٧٧ وحاملى لواء الكفاح والمعارضة ضد اتفاقية كامب ديفيد والتطبيع مع العدو الصهيونى .لقد انشغل بهم النظام أكثر من كل وقت حتى بعد أن صار هناك حزب علنى هو حزب التجمع الذى انضوى الكثيرون تحت صيغته الوحدوية فكان النظام يطارد الجميع ويصادر أعدادا متوالية من جريدة الاهالى وعلى الناحية الاخرى كان يساعد التيارات الاسلاميه التى نمت فيها الأجنحة المتطرفة واستطاعت أن تسرق الارض من تحت اقدام اليسار بدعم النظام وبتعب اليسار من الضربات المتكررة وبالدعم المالى من السعودية وأميركا وغيرها حتى استفحل أمرها فقتلت السادات نفسه .كان المرحوم زكى مراد قد مات فى حادث أليم عام ١٩٧٩ على الطريق الزراعى وهو فى طريقه الى الاسكندرية ليحضر اجتماعا للحزب الشيوعى المصرى وقال شهود العيان أن سيارة مرت على يساره وضغطت عليه ليخرج الى النهر الاخر للطريق فتصطدم السيارالملاكى بسيارة نقل وتقع الواقعة . لقد ذهب المناضل فوزى حبشى بعد أربع ساعات الى مكان الحادث فوجد حقيبة المناضل زكى مراد قد فرغت من محتوياتها من الاوراق الخاصة بالعمل الحزبى . وقبل ذلك كان الرئيس السادات قد طلب لقاء زكى مراد الذى رفض اللقاء .كل ذلك قيل ذلك الوقت وعرف وأعيد هذه الليلة مع كلمات لمناضلين ومثقفين وكان الشاعر المناضل زين العابدين فؤاد يدير الليلة ومعه صفاء زكى مراد المحامية الكبيرة ابنة المرحوم الشهيد زكى مراد . ارتفعت الشعارات عاش نضال الشيوعيين كما ترتفع فى كل مناسبة وداع لمناضل من المناضلين وارتفع شعار عاشت الجبهة الوطنية وهى حلم ذكى مراد القديم الذى وجدها حلا

وحيدا أمام السياسة الساداتية ولا زالت حلم كل المعارضين حتى الآن الذين فيما يبدو صاروا عاجزين عنها تماما .كنت أعرف قبل أن اذهب أننى ذاهب لأستنشق شيئا من الماضى الجميل . قابلت كثيرا من أصدقائى القدامى وكثيرا من الأصدقاء الجدد وكثيرا من قرائى الشباب .لم نتحدث فى شيئ إلا الأحوال الصحية وعلى وجوهم كما كان على وجهى تبدو إمارات السعادة بهذا اللقاء الذى وفره لنا صناع المناسبة وجلس جوارى بعض الوقت فنان الكاريكاتير الموهوب سمير عبد الغنى وقال لى أريد أن أسالك سؤالا قلت له تفضل قال أنا -يقصدهو - كلما تحدثت مع أحد من الشعب عن الأحوال وجدته يقول اننا فى أحسن حال وكلما تحدثت مع أحد فى التغيير يقول لى لماذا اللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش وبعدين افرض غيرنا النظام حتيجى ناس تانية تبدأ من الأول دول على الأقل شبعانين. وأحسست بشيئ من الأسى فى كلامه وقال لى أنى -أقصد هو - سألت الفنان الكبير حجازى لماذاتوقفت عن الكاريكاتير فقال لم يعد هناك شيئ يمكن أن أقوله . لقد قلت كل شيئ .أحسست بالأسى فى كلام سمير وقلت له حجازى من الجيل الذى حلم بكل الأحلام العظيمة بعد ثورة يوليو . الاشتراكية والوحدة العربيه والعدل والمساواة وتحرير فلسطين. وحجازى وكل من أدركوا الثورة فى عزها حلموا بذلك وأنا منهم رغم أنى أحدث ظهورا من حجازى وكلنا أنقلبت أحلامنا الى كوابيس وانفرط عقدها وطبيعى جدا أن يتوقف حجازى صادقا مع نفسه ومثلى يكتب لأنه بغير الكتابه قد يجن . فالكتابه لى هى أقرب للعلاج كما أنى لازلت على أمل فى شيئ أفضل أما جيلكم يا عزيزى سمير فلقد ظهر فى زمن بلا أحلام . أنت لم تر مصانع تقام ثم تراها بعد ذلك تباع برخص التراب ولم تر انتصار اكتوبر ثم صلحا مع العدو بثمن أقل ولم تر أشياء كثيرة ضاعت . أنتم أبناء أشياء أخرى وأحلام طبيعية لم يعد الكلام فيها مشكلة. أن تكون هناك ديموقراطية كاملة. أن تكون هناك مساواة

فى العمل وفرص العمل وعلاج وتعليم وغير ذلك مما ينقص البلاد، ومهما يحدث من خيبات أمل فهى ليست مثل ما شعر به جيلنا والأجيال الأسبق لذلك إياك ان تفكر على طريقة الفنان العظيم حجازى واستمر فى ابداعك، ثم أنك ترى المجتمع حولك يتحرك حتى ولو كانت حركته أجنّه صغيرة هنا أوهناك. بعد قليل قام سمير وخرج ليلحق بافتتاح أحد المعارض وظللت أنا افكر فى طعم الأيام الجميلة الذى كان يصنعه مناضلون مثل زكى مراد وأقابل اصدقائى ومن هم أكبر وأصغر منى وأشعر بكثير من الأمل حتى ولو كان ذلك فى ذكرى عابرة .لكنها ذكرى تختلف لأنها من ماضى لم يكف فيه المصريون عن الحلم بالحياة .لم تكن الاخرة فيه أفضل من الدنيا فلم يكن هذا العزوف عن العمل السياسى ولم تكن الأحزاب تعانى من كل هذه الانقسامات ولم ولم ولم . أشياء كثيرة جعلت المواطن يتمنى فقط العودة الى بيته فى موعده .

التصوير ممنوع في الاسكندرية

كان يوم جمعة ، لكنه لم يكن مثل أى يوم . كشف لى كم الوقت الذى يمكن أن يضيع منك . وكم التعب الذى يمكن أن تتعبه بلا سبب .غير أنك تقوم بعملك الذى ليس له أى تاثير سلبى على أحد .عمل بسيط لكن الاخرين لا يرونه كذلك . اما بسبب خوف أو روتين أو شك كبير أوابتزاز و تلقيح جتت !!والحكاية أنى ذهبت مع عدد من شباب محطة الأو.تى . فى لتصوير برنامج عن الأماكن التى كان لها تأثير علىّ فى كتابة رواياتى.من جانبهم أخذوا موافقة وتصريحا من محافظ الاسكندرية لأن التصوير سيتم هناك . تركنا القاهرة فى الصباح الباكر يوم الجمعة . حددنا برنامج التصوير أن يبدأ أولا بمنطقة العلمين حيث مقابر جنود الكومونويلث ضحايا المعركة. وحيث كان لمعركة العلمين وجود كبير فى روايتى « لا أحد ينام فى الاسكندرية » لم يكن معنا تصريح بالتصوير هنا لأن المنطقة متحف مفتوح والتصوير غير ممنوع فيه .لكن هناك قابلنا شرطيا طيبا أحسست أنه خائف وهو يتكلم قائلا أن التصوير ممنوع، وأنه مضطر أن يتصل بالضابط فهو الذى فى يده الموافقة .لم يكن الضابط بعيدا . ولم يضايقنى أن يتصل به. وطلبت أن أكلمه بدورى فجاء بنفسه وشرحنا له مهمتنا فقال أن المقابر تابعة للسفارة الانجليزية. وطلب منى أن انتظر حتى يتصل بقيادة فى أمن الدولة . كان الحديث وديا بيننا خاصة أنه تعرف على ككاتب. وضحكت وقلت له أخشى أن سؤال أى مسؤول سيجعله يتصل بالأعلى رتبة حتى نصل الى وزير الداخلية. بينما التصوير هنا غير ممنوع فليس

فى الأرض الا مقابر . وقلت له على أى حال لا يزعجنى اتصالك بأمن الدولة لأنه ربما هم الفئة الوحيدة فى البوليس التى تعرف أسماء الكتاب. قام بالاتصال ووافقوه على التصوير وتركنا وشكرناه وقمنا بالعمل بهدوء وبعدها أخذنا طريقنا الى حى المكس فى الاسكندرية حيث قضيت عشر سنوات من عمرى . وهنا كانت المصيبه غير المتوقعة أبدا . فنحن الان فى الاسكندرية . التى معنا موافقة محافظها. ما سيتم تصويره هو أنا وأحكى ذكرياتى عن المكان والقصص التى أوحى بها الىّ . بمجرد وقوفنا قفز الينا ثلاثة من عساكر الجيش حيث يوجد موقع عسكرى مسور لحرس الحدود فيه الفنار الجديد . وقالوا أن التصوير ممنوع .ياجماعة نحن على الشاطئ ولن نصور غير الشاطئ ومعنا تصريح المحافظ . رفضوا وواحد منهم كان منفعلا جدا ويتصرف بغلظة وقوة من فى يده الأمر وكان يرتدى زيا مدنيا . أى بيتفسح على الشط .ثم انضم اليهم عدد من الصيادين يقودهم بائع السمك الشعبى الذى اسمه «اللول» وطبعا أنا اعرف أن التصوير يتم هنا كل يوم . مسلسلات وأفلام . بل أن مسلسل لا أحد ينام فى الاسكندرية الذى كتبته عن روايتى تم تصوير مشاهد منه هنا . وما أن رآنى اللول الذى أعرفه منذ كان فقيرا ليس لديه غير طرابيزة وكرسيين على الشط . حتى اعتذر وأنسحب وأخذ الصيادين معه. لكن بقى عساكر الجيش يقودهم هذا العسكرى الحاد جدا فقلت له أن يخبر الضابط تفاديا لأى نقاش لا يفيد معه .جاء الضابط الذى كان ملازم أول وقال أنه لابد أن يخبر المخابرات العسكرية رغم أننا أطلعناه على تصريح المحافظ ورغم أننى أرى الشاطئ عليه ناس يحملون كاميرات وموبايلات يصورون بها أنفسهم . ورغم أن التصوير التليفزيونى والسينمائى لا ينقطع من المكان كما قلت حتى فكرت يوما أن المخرجين لا يستهويهم المكان بقدر ما يستهويهم سمك اللول وكله على حساب الانتاج !! المهم فعل الضابط الشاب ما يريد وجاءت الاجابة بالموافقة على

التصويروطلبت منه أن يبعد العساكر وبصفة خاصة العسكرى الحاد الطباع وبالفعل أمرهم أن ينصرفوا .

بدأت أقف أمام الكاميرا لأحكى ذكرياتى فاذا بثلاثة اخرين كانوا يجلسون على الشاطئ مع أسرهم ينتفضون ويأتون الينا يرتدون الشورتات ويطلبون من مدير الانتاج اطلاعهم على التصريح بالتصوير . لاحظ أنهم كانوا يتابعون من بعيد ما حدث مع ضابط الجيش. مدير الانتاج شاب صغير أبرز لهم التصريح فقال واحد منهم، أقصرهم وأكثرهم سمنة أن التصريح لا يكفى، وأنه من حى غرب ويمنع التصوير.كنت أراقب المشهد وأنا احكى أمام الكاميرا القريبة، فأشرت للمصور أن يتوقف. وتقدمت اليهم منفعلا لأنى أعرف ما المراد بالضبط. وصرخت فيهم أن الشاطئ لا علاقة له بالحى وأننا لن ندفع فلوسا لأحد واذا لم ينصرفوا سأبلغ رئيس الحى عنهم. ارتبكوا وطلبت الاطلاع على بطاقاتهم. أجل، انصرف اثنان وأعطانى القصير السمين البطاقة فى ضيق .أعرف هذا النوع من تلقيح الجتت ومعناه .رأيت بطاقته الشخصية التى تؤكد انه يعمل فى حى غرب ،فقلت لمدير الانتاج أن يكتب اسمه وأقسمت ان لم ينصرف لصار كل شيئ أمام رئيس الحى. أصابه الخوف وأخذ البطاقة وانصرف ووقف بعيدا مع زميليه ينظرون الينا ويتحدثون همسا ثم ابتعدوا تماما .وقفت أفكرفى ضيق فى هذا النوع من تلقيح الجتت وانتقادنا الدائم للمسؤولين ولا نفطن الى سلوك الناس العاديين الذى تجاوز كل الأعراف الانسانية البسيطة فى المعاملة. كان يمكن أن نعطى موظف الحى ومن معه البقشيش الذى يريدونه لكن ليس بهذه الطريقة خصوصا انه رأى ضابط الجيش يسمح لنا بالتصوير ورأى الصيادين واللول يتراجعون بعد أن تعرفوا علىّ. غادرنا المكان بعد أن انتهينا وأخذنا طريقنا الى الانفوشى. وتذكرت حادثة قديمة فى التسعينات حين كانت بعثة تصوير فرنسية تصورنى فى الاسكندرية .وبينما هم يصورونني ظهر شاب عرف نفسه بأنه

محامى وسألنى كيف يتم تصويرى على رصيف القطار وسط ناس فقيرة ستظهر فى الفيلم الفرنسى وهذا يسئ الى مصر. يومها ضحكت وقلت له المرة القادمة سأجعل الفرنسيين ياتون معهم بملابس نظيفة للناس قبل التصوير. فتركنى غاضبا الى مكتب الأمن بالمحطة الذى استدعانا جميعا واطلع على التصاريح ونهر الشاب المحامى وأرسل معنا شرطيا لحمايتنا من أى تدخل. ووجدت نفسى أطلب من مدير الانتاج أن يوافق على أن يساعدنا عدد من الصيادين على البحر نظير أى مبلغ حتى لا نتعرض لأى مضايقات خصوصا اننى لم اعد قادرا على تحمل اى جديد. وبالفعل حدث ذلك وأبعد شباب الصيادين الناس عن أماكن التصوير. وانتقلنا الى محطة الرمل لالتقط صورة عند بائع الكتب والصحف الشهير محمد الرملى الذى طالما اشترينا منه كتبا فى شبابنا وصبانا وهنا أيضا ظهر أمينا شرطة لكنهما ابتعدا بمجرد ابراز التصريح وانتهينا من عملنا . انفقنا جهدا ووقتا لا معنى له مع الجميع وجلسنا نستريح فى مقهى ورحت أفكر كيف يحدث ذلك الآن حقا وما هو المهم فى شوارعنا ومدننا كلها بما فيها من بشر وزحام وزبالة وسيارات وحيوانات . للأسف كان يوما مجهدا ليس بسبب العمل ولكن بسبب هذا التدخل الذى لا معنى له. وقلت لنفسى لله فى خلقه شئون. لكن كان الأمر سخيفا أكثر مما ينبغى .

في الطريق الي بلد البنات..

«من حكمدار العاصمة الى أحمد ابراهيم الساكن بدير النحاس، ألدواء فيه سم قاتل» عبارة يعرفها كل من شاهد فيلم «حياة أو موت» الذى كان الاخراج الأول لكمال الشيخ الذى استطاع فيه أن يأخذ بأنفاس المشاهدين وهم يتابعون الفتاة الصغيرة حاملة الدواء لأبيها عماد حمدى بخوف أن تصل اليه فعلا قبل أن يعرف أن الدواء فيه سم قاتل أو قبل أن يمسك بها البوليس الباحث عنها فى القاهرة، أو قبل أن يصل البوليس الى بيت أبيها .بوليس العاصمة الذى أخبره الصيدلى حسين رياض أنه أخطا فى تركيب الدواء يسابق الزمن للوصول الى فتاة صغيرة لا يعرفها هى التى اشترت الدواء، والفتاة تتجاوز كل العقبات لتصل الى أبيها غير مدركة ان البوليس يبحث عنها . ايقاع سريع وتشويق واثارة لا تزال لها قيمتها فى السينما .

لو تكرر الأمر الآن فمن المؤكد أن المريض سيموت . فالبوليس لو عرف أن الدواء فيه سم قاتل لن يستطيع أن يتحرك وسط هذه الفوضى الهائلة . هذا اذا تحرك .

تذكرت هذا الفيلم بقوة وأنا فى طريقى لمشاهدة فيلم «بلد البنات» لأنى ببساطة رأيت فى طريقى القيامة .

لقد تعودت منذ سكنت فى هضبة الأهرام ، أن أحدد مواعيد خروجى صباحا بعد العاشرة وعودتى مساء بعد العاشرة مساء

أيضا . أى أننى اذا خرجت أمضى النهار كله فى الخارج . ولأن الصحة لا تحتمل جعلت الخروج يومين أو ثلاثة فى الاسبوع . السبب طبعا هو الزحام الطاغى فى شارعى فيصل والهرم اذا سلكت أيا منهما , والزحام الطاغى أيضا فى ميدان لبنان اذا سلكت الطريق الدائرى . بين العاشرة والثانية عشر صباحا أو ليلا تستطيع ان تعبر هذه الأماكن كلها فى وقت معقول.. كانت لدى دعوة لمشاهدة فيلم بلد البنات ، وكان لدى فى نفس اليوم مشوار فى شارع فيصل فقررت أن أغادر البيت فى الساعة السادسة ، أى قبل موعد الفيلم بثلاث ساعات. لم يكن ممكنا الخروج منذ الصباح والبقاء فى الخارج كل هذا الوقت. منذ البداية لم أخرج من البوابة الأولى لهضبة الاهرام، بوابة خوفو الأقرب الى بيتى ،وجدت السيارات متوقفة داخل الهضبة نفسها لا تستطيع مغادرتها وسائق تاكسى يتشاجر مع أحد الشباب قائلا لقد ركبت معى من ميدان التحرير فى الساعة الثالثة والساعة الآن السادسة وتدفع لى عشرين جنيها ؟عرفت من النقاش أنه عبر ميدان الرماية فى ساعتين وان السيارات لا تخرج من الهضبة لأن طريق الفيوم مكدس بالسيارات من ميدان الرماية الى نهاية منطقة الهضبة، اى لحوالى خمس كيلومترات. أخذتها من قصيرها من داخل الهضبة الى البوابة الأخيرة، بوابة مينا، التى تؤدى الى ٦ أكتوبر و التى منها أيضا أستطيع أن آخذ الطريق الدائرى من بدايته. قررت أن الغى مشوارى الى شارع فيصل . فى نصف ساعة تقريبا وصلت الى منزل «صفط اللبن» . رأيت اللافتة تعلن الاتجاه الى صفط اللبن والى شارع فيصل أيضا . وسوس لى الشيطان أن أعود عن قرارى وأنزل الى شارع فيصل مادام الوقت متسعا هكذا ومادمت ابتعدت عن الزحام، وكان ماكان و رأيت القيامة كما قلت ،أمضيت ساعتين وسط حالة من الجنون. لا يوجد متر واحد مرصوف فى اى شارع أو مسفلت، لا يوجد متر واحد الا وناس تمشى فيه كيفما اتفق بين عشرات من التكاتك يقودها أطفال وميكروباصات يقودها مجانين

وحمير وجواميس وعربات كارو وأكوام زبالة وكلاكسات وصياح وناس تتطوع بمحاولة تنظيم المرور الذى لا ينتظم ولا طريق لى للعودة مرة اخرى الى الطريق الدائرى. وهنا ساعدنى الخيال. أحسست أننى فى غابة وأن هناك قرودا ستقفز فوق سيارتى من فوق الاشجار. رغم أنه لا توجد أشجار. ورحت أبتسم. ثم تخيلت أننى فى مدينة ضربها زلزال وحمدت الله أننى حى أهرب بسيارتى مع الهاربين من الموت ، حتى وصلت الى منطقة بشارع العشرين فيها كوافير تزدحم أمامه عشرات من سيارات الزفاف وحولها عشرات من سيارات المعازيم بحيث توقف الطريق تماما. لكن هنا قابلت بشرا سعداء. ألوان ورقص وغناء. هذه اذن هى المتاهة التى يبدعها الادباء فى أعمالهم .والتى تبدو ممتعة رغم مابها من فجيعة. اعتبرت نفسى فى متاهة روائية وليس فى عالم حقيقى وشكرت الحكومة والشعب ورؤساء الأحياء الذين قدموا لى هذه المتاهة المتخيلة . صرت سعيدا مع السعداء ، هم بالزفاف وأنا بالجنون. وباليقين بأن حياتنا كلما ازدادت تعقيدا وارتباكا وفوضى فهذا يعنى الفوز بموضوعات روائية وسينمائية. وهكذا يكون حظ المبدعين هو أكثر الحظوظ اذ لو كان كل شيئ تمام ماذا سيكتب المبدعون ؟ أكيد لا يجد المبدعون فى الجنة شيئا يكتبون عنه كما يجدوا فى الجحيم !. فى النهاية وصلت الى شارع فيصل. صارت الساعة الثامنة والنصف. ألغيت مشوارى اللعين لألحق بالفيلم. لقد تأخرت أكثر مما ينبغى. وجدت عربة اسعاف تحمل مصابا ولم يتعطل الطريق غير دقيقة لكنى عرفت أن عربة الاسعاف وصلت بعد ساعة ونصف. أدركت أن فيلم كمال الشيخ لم يكن ليتم الا فى الخمسينات من القرن الماضى. واخذت طريقى الى السينما بالمريديان. لم يكن الوقت صعبا بعد ذلك ولم اندم على ما أنفقت من جهد عبثى واعتبرت نفسى كما قلت فى متاهة فنية أكملتها بفيلم بلد البنات الذى وجدته جميلا ، ممثلوه وجوه جديدة . فرح يوسف وريم حجاب وبدرية ووسمية التونسية ، وكاتبته

علا الشافعى الصحفية الناجحة والمثقفة الجميلة ومخرجه عمرو بيومى زوجها الموهوب الذى ظل سنوات طويلة يبحث عن فرصة حقيقية بعد فيلمه القصير الأول « الجسر» . يحب عمرو السينما ويعرف أنها لا يجب ان تكون تافهة أبدا. موضوع الفيلم هو ماذا يمكن أن تفعل المدينة, القاهرة ببنات الريف من الدلتا والصعيد .الموضوع تناولته السينما من قبل وقدمته فى أفلام لا تنسى ، ابن النيل وشباب امراة والنداهة مثلا, لكن هذه المرة أربع بنات يمثلن كل ربوع مصر وثقافتها. هذه أول مرةٍ يتم فيها الموضوع بهذه الرؤية الشاملة للمكان وللزمان الذى هو قهر المراة بصرف النظر عن أى ثقافة. الفيلم لا يتحدث عن هذا القهر بالسياسة ولا بالخطب والشعارات, والأهم أن الفتيات الأربع يدخلن فى التجربة بقصد وادراك. يخفقن جميعا وتتغير حياتهن ، لكنهن لا يندمن ولا ييأسن, هن اللاتى فقدن عقولهن وقررن أن يأخذن حقوقهن الانسانية .فعلن مايردن ولو مرة. لكن الفيلم أكد لنا أن النظرة للمرأة هى هى فى الريف أو المدينة أو الصحراء . فى الماضى أو فى الحاضر ، مجرد متاع جنسى, لكن قوة البنات التى ظهرت فى الاختيار تستمر معهن ليخترن طرقا جديدة أنضج للحياة. اذن قابلت فى الفيلم بشرا سعداء بحق كما قابلت فى الطريق, الجحيم الذى مررت به .الحياة اذن ممكنة ، هكذا قالت سيارات الزفاف التى مررت بها وهكذا يقول الفيلم الذى كانت مشاهده المعبرة التى تصور حركة المرور فى القاهرة وشوارعها يقطع بها المخرج تسلسل الأحداث ليقول لنا أن المدينة لا تقف عند أحد بل هى تهرس بعجلاتها كل براءة انسانية محتملة, كانت هذه المشاهد بقدر ما تحيلنى الى المعنى العميق للفيلم تحيلنى الى رحلتى العجيبة اليه . هكذا تأكد لى أننى عشت فيلمين . وفى الفيلمين قابلت بشرا سعداء رغم العجلات, والحمد لله على نعمة الخيال فى السينما وفى الحياة .

أسئلة الحلاق واجاباته

«الحلاق» موضوع ظريف فى الحياة الشعبية. معروف أنه من خصائص الحلاقين الكلام. الثرثرة مع الزبون فى الفاضية والمليانة. لذلك يصف الناس الحلاق با لبرود, لانه وهو يتكلم مع الزبون لا ينتبه مثلا الى أن الزبون لا يريد الكلام. والحقيقة أن الثرثرة ليست صفة للحلاق منذ البداية ، والا كان كل ثرثار حلاقا ، لكنها المهنة تفرض عليه ذلك ،فهو يقف طول الوقت على رأس الزبون لايرى منه غير الراس والوجه ومن ثم يتجه اليك بالكلام. يقطع به الوقت من ناحية, والملل من عمل روتينى متكرر. مقص يعرف طريقه فى الرأس. أو موس يعرف طريقه على الزقن. الله يرحمه يوسف ادريس عنده قصة عبقرية عن زبون يجلس أمام الحلاق فى رعب لأنه سأل نفسه ما الذى يضمن أن لا يستخدم الحلاق الموس فى قطع رقبته. وكأنه يعرف بعبقريته, يوسف ادريس, أن ذلك قد يكون الطريق ليحقق الحلاق نفسه فى عمل غير روتينى . يتفاعل الحلاق مع الوجه الواضح أمامه ليس أكثر ,ولأن الزبائن مختلفون فحديث الحلاق لابد أن يتوافق مع كل زبون, وبالطبع لن يجد الحلاق كلاما يكفى الجميع ومن ثم قد يتحول الحديث الى أى كلام. كلام الحلاق فى الحقيقة مرض مهنة وليس طبيعة, وكل مهنة لها أمراضها . فالحداد يتكلم عادة بصوت عالى, والخراط يمشى منحنيا . وبائع العرقسوس يمشى فاردا ظهره الى الخلف, والضابط نادرا ما يغمض عينيه . والمخبر تدور عيناه فى كل مكان, وكل ذلك فى غير أوقات العمل أيضا . فالكلام مرض مهنة لحلاق الرجال أما حلاق السيدات فالكلام له ضرورة بحكم

المهنة وأيضا بحكم ميل السيدات الى الكلام طبعاً.

الحلاق حريص عادة أن يتعرف من الزبون مع الوقت على عمله فاذا كان الزبون مدرسا فالحلاق لديه ما يقوله عن الدروس الخصوصية، وعن حال المدارس وعن التعليم زمان والآن . واذا كان الزبون طبيبا فالحلاق لديه ما يقوله عن الصحة والمرض والاهمال فى المستشفيات وارتفاع أسعار الفيزيتا والدواء وهكذا . الحلاق لديه دائما ما يقوله للزبون .

حين تكون مهنة الزبون الثقافة . الكتابة كما هو فى حالتى، فالحلاق لديه أكثر مما لديه لزبون آخر، فهو يتابع المسلسلات، فهناك دائما تليفزيون مفتوح فى المحل، ويتابع النشرات، واذا كان من زبائنه أكثر من كاتب ومثقف فيسأل الزبون عن مدى معرفته بهم وعن رأيه فيما يكتبونه ويبدى دائما معرفة بانتاجهم الثقافى الذى عرفه بالتأكيد من الثرثرة معهم .

الحلاق الذى أحلق عنده لا يرحمنى من هذه الاسئلة وطلب المعلومات، رغم أننى أحيانا ارسم على وجهى جهامة بسيطة تكفى اشارة له أن يصمت، وأحيانا أضطر الى طلب العمل بسرعة لأنى على موعد، لكنه فى كل الأحوال لا ينتهى الا فى موعده المعتاد فأضطر الى اختصار بعض الفقرات مثل الفتلة أو الغسيل أو حلاقة الذقن . لكنى مع الوقت اكتشفت أن اسئلة الحلاق لا تختلف كثيرا عن آراء بعض المعلقين السياسيين أو فى الفنون وخاصة المسلسلات . فهو يرى مثلا أن المسلسل غير ناجح لأنه لا موعظة منه ولا معنى أخلاقى وراءه، ويرى أن الكاتب الروائى مثلى يجب أن يذهب بأعماله الى التليفزيون حتى يكتسب ياباشا مساحة أكبر من الناس واذا رفض التليفزيون روايته يكتب يشتم المسؤولين فى الصحف لأنهم عادة خوافين وكلهم أخطاء وعموما بلدنا كده ما ينفعش تاخد

حقك بالأدب ! كما أنه ليس مهما أن المسلسل يطلع وحش وأقل من الرواية لان الفلوس والشهرة أهم يا باشا وان النجوم بيجروا وراء الكتاب الكبار وكذلك جهات الانتاج . ولم أحاول ابدا أن أصحح له افكاره وأقول أن النجوم هى تقريبا التى تؤلف او ترسم للمؤلف حدود التأليف لأن المسلسلات الآن تبيع بالنجوم وليس الموضوع الا نادرا .ثم يسألك هل التأليف هذا تجارب حقيقية للمؤلف وهل هذه الشخصية فى مسلسل كذا مستوحاة من فلان فعلا. هل ما يحدث على الشاشة خيال أم حقيقة واذا كان حقيقة فلماذا يسكت الوزير المقصود أو نائب القروض المقصود على ذلك وفى كال الأحوال الفيلم أو المسلسل الذى ينقل الواقع محترم فعلا .لا أحاول أن أفهمه أن الفيلم أو المسلسل المحترم هو الذى لا ينقل الواقع لكن المشكلة أن كثيرا من النقاد يرون الفن كما يراه الحلاق وهو بالتأكيد يسمع لهم . ثم يعود ويتحدث عن العلاقة بين المؤلف والمخرج والممثلة فلانة وهل كان سيتزوجها وهل أعطاها الدور الأول لذلك ثم يقفز بالسؤال هل هناك فعلا مؤلفين حرامية يسرقون من الأفلام الاجنبية لأنه شاهد فيلما امريكيا وجده يشبه تماما الفيلم العربى كذا. وهل هذا مسموح واذا لم يكن فلماذا يسكت النقاد ثم ماهى حكاية المسلسلات الكثيرة جدا فى رمضان وفى كل سنة يقولون أن هذا أكثر من اللازم ويتكرر الأمر . وأنه شاهد مؤلفا يسكن فى الحى يقيم عزومة سحور كبيرة للأبطال والصحفيين . المؤلف نفسه هوالذى أخبره بذلك. هل هذا شغل ؟. وكثير جدا من الكلام والاسئلة تكتشف أنها هى التى تشغل حياتنا الفنية . وفى كل حواراته معى لا أجد مناصا من بعض الاجابات هى أن السرقة تحدث لأن حقوق التاليف مهدرة فى مصر وفى الخارج لا يتابعون الانتاج المصرى ولا يعرفونه. فى أميركا مثلا. وأن المسلسل. أى مسلسل لن ياتى أبدا مثل الرواية لاختلاف الوسيط وطريقة العمل والمهم أن يكون المسلسل على درجة عالية من الفن . والمهم اننى فى كل

مرة أذهب اليه يعود الى نفس الاسئلة كأنه لم يسألها من قبل، وأظل أنا عل حالى أجّهم احيانا وأطلب السرعة أحيانا أخرى وبأدب أو أجيب ما استطعت الاجابة وأتذكر قصة يوسف إدريس البديعة وأقول ربنا يستر.

المرأة التي لا نعرفها

من العلامات الكبرى فى تاريخ مصر فى العصر الوسيط الكوارث والأوبئة التى جعلت الشعب المصرى يكاد ينقرض. وتستطيع أن تتصور ذلك إذا عرفت أن مصر التى زاد عددها على العشرة ملايين فى العصر اليونانى والرومانى أو العصر الهلينى الذى شهدت القرون الثلاثة الأولى منه تعذيب وفتكا بالمصريين الذين آمنوا بالمسيحية. لم يتدن عدد سكانها وظل كذلك ويزداد بعد الاعتراف بالمسيحية حتى دخول الإسلام. وحين دب الضعف فى الخلافة الإسلامية توالت على مصر دول متعاقبة كان المصريون هم آخر من يهتم به الحكام فيها حتى صار الطاعون مرضا لا يبعد عن مصر. وهكذا راحت أعداد المصريين تتناقص فى ظل الفقر والقهر والفساد ونهب ثروات الوطن وتوالت كذلك المجاعات التى نجد أخبارها عند المقريزى وابن اياس وغيرهما من المؤرخين حتى صارت الناس تأكل أولادها بعد أن عزت القطط والكلاب! ذلك كله معروف لا يضيرنا أن نعيده ولا نخيف به أحدا وانتهى الأمر حين دخل نابليون مصر عام ١٧٩٨ وقد صار تعداد سكانها مليونين لا أكثر من الفقراء أو الشيوخ والأعيان والتجار. فقط مليونين ولا تذهل إذا قلت لك إن مدينة مثل الإسكندرية كان عدد سكانها فى العصر اليونانى أو المقدونى إذا احببت ثلاثمائة ألف حر ولا شك تستطيع أن تضيف ربعهم أو نصفهم من العبيد. وحين جاء نابليون كان تعداد الإسكندرية ثمانية آلاف نسمة.انظر ماذا فعل الفساد والاستبداد والأوبئة والمجاعات فى البلاد. لقد كان ما فعله نابليون بونابرت بسيطًا جدًّا إذ أدرك على الفور ما نسيه الحكام

المصريون وهو أن الأوبئة تأتى من القذارة ومن ثم بدأت على الفور حركة لتنظيف الشوارع واضاءتها بالغاز وتم تعيين امرأة لكل شارع لها مهمة واحدة هى اجبار النساء على تعريض المراتب والمفروشات فى الشمس كل يوم جمعة. وتم نقل المقابر خارج القاهرة وهكذا اختفت الأوبئة وبدأت أعداد المصريين فى التكاثر وفى عصر محمد على بدأت نهضة كبرى كان من أهم أسسها حرية العبادات فأخذ المسيحيون مكانهم مع المسلمين وكذلك فعل اليهود وانطلقت مصر فى نهضة كبرى يطول الكلام فيها ويكفى أن مصر البلد الموبوء من قبل صار يهدد أوروبا بأساطيله ويهدد الامبراطورية العثمانية نفسها مما جعل أوروبا بزعامة إنجلترا تتآمر على محمد على وتحدد له عدد الجيش بثمانية عشر ألف جندى فقط وأن يفتح البلاد لرأس المال الأجنبى، أو ما سمى بسياسة الباب المفتوح. لكن مصر رغم ذلك لم تعد للأوبئة والمجاعات. صارت النظافة عنوانا للبلاد. وبعيدا عن تاريخ مصر السياسى والاقتصادى صارت مصر من أجمل بلاد العالم، مدنها الكبرى بالذات. وكان يقال إن لندن وباريس مدينتان نظيفتان مثل القاهرة. نسى الناس بداية النظافة ونسى الناس المرأة التى عينتها حكومة الاحتلال الفرنسى تعاقب النساء إذا لم يخرجن مفروشات البيوت فى الشمس والتى أتذكرها الآن كلما مشيت فى شوارع الجيزة الكبرى والصغرى وكذلك القاهرة القذرة إما إذا زرت الريف فحدث ولا حرج عن أكوام الزبالة والجثث النافقة فى الطرقات والنفايات التى يلقى بها فى النيل وفى الترع والمصارف وغير ذلك مما هو غير خفى على الشعب كله والحكومة طبعا. يحدث ذلك فى وقت فيه حكومة مركزية أقوى من حكومة محمد على ومحافظون لكل مدينة أقوى من حكام الاقاليم ذلك الوقت وإدارة محلية فى كل مدينة أو محافظة ووزارات للصحة والإسكان والسكان وما شئت فما الذى أوصلنا إلى هذا الحال. ولماذا لا يخاف أحد من عودة الأوبئة مرة أخرى إلى مصر؟ ما هذه الثقة

فى أن مصر بخير ونحن نرى حولنا إنفلونزا الطيور وقد توطنت فى البلاد وأنفلونزا الخنازير وطاعونًا يقال إنه قادم من الحدود الغربية وتيفويد يفتك بالفقراء فى الريف وطبعا لن أحدثك عن فيروس سى ولا فيروس بى ولا البلهارسيا ولا السل الذى كان قد اختفى من البلاد لأنه مرض يرتبط بالفقر لكنه عاد. نحن فى حاجة شديدة إلى تعيين امرأة على رأس كل شارع لا لكى تضرب النساء أو تعبطهن كما كان يحدث ولكن لكى تأتى مرة على الأقل كل أسبوع بمسئول الحى أو مسئول النظافة فى الحى وتربطه إلى أى عمود نور وتطلب من الرجال والشباب وأطفال الحى أن يقوموا بعبطه وضربه بالعصى والخيزران حيث يكره. لم يعد أمامنا إلا هذا الأسلوب القديم ولكن هل سوف تسمح الحكومة بذلك وهى التى قامت بتعيين هؤلاء المسئولين واعطائهم الرواتب الكبيرة من ضرائب الشعب؟ الحكومة لن تفعل ذلك. إذن ليس أمامنا ألا عبط هذه الحكومة كلها لكن هذا أيضا لا نستطيعه لأن الحكومة وأكبر القوى السياسية كما يقال متفقتان على ما نحن فيه فالإخوان المسلمون وكل الجماعات الدينية وكل المشايخ فى الصحف والفضائيات يتحدثون فى كل شىء لكنهم ابدا لا يقولون لأحد إن النظافة من الإيمان. وكذلك الدولة ورجالها لا يرون الشوارع التى نراها ولا يريدون. بل لا يريدون لأحد أن يذكرهم بشىء كان جميلا فى بلادنا وأعنى به النظافة كما لا يريدون لأحد أن يذكرهم بالليبرالية وحقوق الإنسان وحرية العبادات ولا انتخابات للمحافظين ورؤساء الأحياء وغير ذلك مما يطول فيه الكلام. هل تختلف هذه الحكومات عن حكام مصر فى عصور الانحطاط والأوبئة؟ لا أظن!

في المسألة الكروية .. أين الأفيون؟

لم يعد هناك كلام جديد يقال عن فوز مصر بكأس القارة الافريقية للمرة الثالثة على التوالى.أجمعت الصحف المصرية والعالمية وأجمع الناس على عظمة هذا الانتصارالذى لا يتكرر خصوصا فى ظل فرق قوية منافسة أربع منها تأهل لكأس العالم وأكثرها له تاريخ طويل مع الكرة .ولم يعد هناك كلام جديد يقال عن عظمة حسن شحاتة مدربا ومعاونيه وكل اللاعبين الذين شاركوا والذين جلسوا مستعدين على كراسى الاحتياط .

وما أود ان اتكلم فيه هنا هومناقشة لكلام قديم يتكرر دائما مع كل انتصار كروى كبير تخرج فيه الناس الى الشوارع تفرح وتحتفل وتغنى بجنون .لقد عشت عمرى بين المثقفين أسمع دائما أن الكرة افيون للشعب .

مخدر للشعب يلهيه عن مطالبه السياسية وتستخدمها الدول الديكتاتورية لالهاء الشعب المسكين. ولا أكذبكم اذا قلت اننى فى سنى شبابى المبكر كنت أميل لهذا الكلام بعض الشيئ لكن كان دائما يظل فى نفسى احساس بأن الامر ليس كذلك. خصوصا أننى كنت فى صباى لاعب كرة شراب فى شوارع كرموز وكوم الشقافة وكنا نرى الناس تشاهدنا بفرح ونحن نقيم المسابقات بيننا والأحياء الاخرى ونلعب أحيانا بالليل على الاضواء الكاشفة التى لم تكن غير مصابيح الشوارع ورغم ذلك كنا نجد من يتفرج علينا وكانت بعض السيدات والفتيات تطل علينا من النوافذ المفتوحة فى الصيف

وكنت أرى سعادتهن باللاعبين الممتازين من بيننا .

بدورنا كنا نحن لاعبى الكرة الشراب الصغار نفرح جدا بلاعبى الأندية ونتفرج عليهم فى التليفزيون فى المقاهى بجنون ونذهب أحيانا الى ميدان محطة مصر نتفرج على بعض المباريات التى يشترك فيها بعض لاعبى الاتحاد السكندرى المعروفين ذلك الوقت .

كنت على ثقة أن كرة القدم هى اللعبة الشعبية الأولى والذين يفرحون بها يفرحون لانها كذلك ولا تلهيهم ابدا عن السياسة لكن بين المثقفين وبعد أن وفدت الى القاهرة فى منتصف السبعينات صرت أسمع هذا الكلام وصرت أميل اليه قليلا وداخلى احساس بالرفض لكن كنت أسكت وخصوصا حين يتم ضم الاعجاب بأم كلثوم الى المعنى ذاته باعتبارها اداة النظام فى تخدير الناس وأقول بينى وبين نفسى انها ليست كذلك ولا أقول ذلك لأحد لأن أحدا لن يصدق خصوصا من مثقفى اليسار الذين كانوا يملأون الدنيا ذلك الوقت وطبعا لن يصدقنى أحد الان من مثقفى اليمين او الاخوان المسلمين لأنهم سيقولون ماهو أفدح أن الكرة لهو والغناء لهو وكفر وما أكثر ما استمعنا الى شيوخ مشاهير وغير مشاهير ينددون بأم كلثوم ويسبونها هى وعبد الحليم وغيرهما .

هذه المرة تردد أيضا هذا الكلام فى المناقشات والجلسات العادية وتردد فى بعض المقالات اذ كيف يجمع الشعب كله على الكرة ولا يجمع نصفه على السياسة؟ وقيل الكثير عن محاولة بعض رموز الحكم باعتلاء الموجة حين كانوا مع اللاعبين أوكانوا فى استقبالهم، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك أبدا فالكرة والانتصار أعطيا الشعب فرصة الفرح لبعض الوقت. لكن كل هؤلاء الفرحانين سيعودون سريعا الى الحياة ويشعرون بتعاستها بالنسبة الى أغلبهم

ويفكرون فى السياسة لكن الأغلبية ستلقى حمولها على الله تاثرا بفكر الاخوان والشيوخ الذين يرون الاخرة اهم من الدنيا والذين تسببوا فى انسحاب الناس من العمل العام اضعاف اضعاف ما ساهمت الكرة اذا كانت تساهم، والاقلية التى ستتذكر أوضاعها لن تجد أحزابا قويه تفتح لها الطريق وستجد حكومة قوية تمنعهم من أى عمل .

لقد شاهدت على طول حياتى شعوب امريكا اللاتينية الفقيرة وهى تحتفل بجنون بالكرة وأبطالها منذ بيليه وجارينشيا وريفيلينو الى مارادونا وأرديليس الى رونالدو وكنا ايضا نقول أنها شعوب فقيرة ونظم حكم ديكتاتورية تلهى شعوبها لكنى رأيت ذلك الجنون أيضا مع الفرق الأوربية رغم ان الدول الاوروبية دول ديموقراطية وشعوبها دفعت الغالى والرخيص من اجل تحقيق هذه الديموقراطية .ثم رأيت هذا الجنون ينتقل الى الولايات المتحدة رغم حداثتها فى اللعبة وانتقل أيضا الى آسيا والدول العربيه على اختلاف انظمة الحكم .

الكرة اذن ليست الا لعبة شعبية تجمع عليها كل الشعوب وليست أبدا سبيلا لتخدير الشعوب والا كانت الصين مثلا أعظم الفرق من زمان وكذلك الاتحاد السوفييتى من قبل فهما كانا من اكبر الديكتاتوريات فى الدنيا بل ان الكرة فى الاتحاد السوفييتى من قبل كانت تخسر فى مبارياتها مع الغرب لحرص المدربين على اللعب الجماعى كما يقول الكتاب دون اطلاق الفرصة للمهارات الفردية .

كنا نرى لعبا جميلا جدا لكن بلا تهديف ومن ثم بلا انتصار. كانت الكرة مثل تعليمات الحزب الواحد بينما كان الأمر على غير ذلك فى اوربا وامريكا اللاتينية وما أكثر اللاعبين السوفييت الكبار الذين تمنوا الهرب الى اوربا لاطلاق قدراتهم ومهاراتهم الفردية .الكرة اذن ليست افيونا للشعوب ولكن تحريك الشعوب يحتاج الى أحزاب

تدفع الثمن ويحتاج الى حركة أهلية نشطة ويحتاج الى مواجهة حقيقية للفكر الرجعى والى فضح هذه العلاقة الملتبسة بين جماعة الاخوان المسلمين والنظام الذى يعرف الى أى مدى يتركهم ويعرفون هم الى أى مدى يبتزونه دون أن ينتصر احدهما على الاخر ويظل المجتمع على هذه الحالة الغريبة نظام لا يتغير ابدا وجماعة لا تتغير ابدا وتظل تعطيه الفرصة للبقاء بينما تقول غير ذلك واكبر دليل على هذا الامر هو ما أعلنه المرشد السابق من اتفاقهما المسبق على النجاح ثمانين عضوا فى مجلس الشعب لم يتأثر النظام بوجودهم ولكن اظهر للعالم الحر الذى كان يدفع فى الديموقراطية او حتى يتحدث عن ضرورتها أن الديموقراطية ستأتى بالاخوان ومن يومها لم يعد أحد فى الدنيا يهتم ان تتحقق الديموقراطية فى بلد ستأتى فيه حماس جديدة . إذن ننسى هذا الكلام عن الكرة واتهامها ونعود إلى الحقيقة وهى أن ما يخدر الشعب المصرى هو ما اشرت اليه من تراجع الأحزاب وقوة الإخوان والنظام وتعاونهما معا .

أهلنا النوبيون.

حضرت ندوة حول المشكلة النوبية أقامتها جمعية السكن الأهلية وهى الجمعية التى تسعى لحل جزء أساسى من المشكلة النوبية وهو عودة الذين هجّروا من بلادهم مرتين خلال القرن العشرين . الأولى فى أول القرن عند بناء خزان اسوان والثانية عند بناء السد العالى . ومنذ سنوات قريبة وأنا أقرأ وأسمع عن نضال الاخوة النوبيين للعودة الى بلادهم واحتجاجهم على كثير من مظاهر التمييز ضدهم . تمييز أساسه لون البشرة . والحقيقة أننى وأنا اتابع هذا كله بالصدفة أحيانا وبالرغبة احيانا أخرى كنت دائما أشعر أننى غير كل الناس لا أرى مشكلة كبيرة. وأسال نفسى لماذا لا يعود النوبيون بسهولة والقانون والدستور يكفل لأى أحد الحركة بين البلاد والاستقرار فى أى مكان يريده. كما أن مسالة التمييز فى مصر بسبب اللون مسألة تكاد تكون أقرب للفولكلور الضاحك ولا ترتب مواقف عنيفة . أو لم ترتب مواقف عنيفة أبدا فلم نسمع عن جريمة قتل واحدة فى تاريخنا قامت على اساس اللون كماحدث فى دولة مثل أميركا مثلا . بالعكس أكثر اغانينا العاطفية القديمة بالذات منحازة للبشرة السمراء حتى ضج البيض فظهرت أغنية «قالوا السمار أحلى ولا البياض أحلى ، قلت اللى شارينى جوة العيون يحلى» وكثير من الكتاب والفنانين الكبار سود البشرة وكان رئيسنا انور السادات رحمه الله كذلك . ربما هو التليفزيون الذى لا زلنا لا نرى فيه مذيعا أو مذيعة سمراء وهذا خطا فادح. وسألت نفسى كثيرا لماذا حقا لا تسمح الدولة بعودة النوبيين . فى الندوة عرفت أن

عودة النوبيين أمر تقرر فى مجلس الشعب من قبل لكن المشكلة أن هذه العودة تحتاج الى مساكن وحتى فى حالة العودة الطبيعية . أقصد الفردية اذ يعود النوبيون وحدهم بعيدا عن اسهام الدولة .فلن يصبح ذلك سهلا لأن المسالة تحتاج الى مكان او أماكن يتم اختيارها وبنية أساسية لا يستطيع النوبيون وحدهم الاطلاع بها. وفى هذه النقطة بالذات أرى طلب الأخوة النوبيون جديرا بالتحقق . ما الذى يمنع الدولة المصرية أن تفعل ذلك حقا ؟ لا شيئ . على العكس التأخر فيه يزيد من حدة المشكلة ويجعل طلبات النوبيين تتحول الى كفاح ونضال وبعد ذلك يتم التقوّل عليهم أنهم يدعون لانفصال النوبة . النوبيون الذين تم تهجيرهم مضت عليهم سنوات طويلة ولا شك أصبح لكثير منهم علاقات وثيقة وعميقة بالمكان الجديد لكن لا شك هناك أغلبية كبيرة قد خلعت من جذورها وتريد العودة اليها وهذا حقهم . هل الدولة المصرية غاوية مشاكل وسوء سمعة إذ يتحول الأمر الى اقلية مضطهدة وهم مصريون خلصاء وخلص لهذه البلاد . فى هذه النقطة أرى الدولة المصرية صانعة لمشاكل لا معنى لها ولا ضرورة .للأخوة النوبيين مطالب أخرى مثل إحياء اللغة النوبية، واللغة النوبية لم تندثر بقرار دولة لكن بتطور الزمن وهذا أمر يعود تحقيقه الى النوبيين أنفسهم إذا أرادوا أن يكتبوا كتبا باللغة النوبية لا اظن سيمنعهم أحد غير الناشرين الذين سيرون أنه لا أحد سيشترى هذه الكتب من النوبيين أنفسهم .

إحياء اللغة النوبية لتكون لغة كتابة وقراءة مجهود كبير جدا يحتاج الى مجهود أهله لا مجهود حكومة. فاللغة كائن اجتماعى يتطور أو يضيع بتغير المجتمع. ذلك حدث من قبل مع اللغة الفرعونية ثم القبطية التى صارت محصورة فى الكنائس، أى صارت لغة كنسية لا أكثر . وما أكثر اللغات المحدودة فى العالم التى تضيع

وتندثر .مسألة ثالثة جرى الحديث فيها وهى الثقافة النوبية والتراث النوبى ومن هنا أنا أدعو كل الهيئات العاملة فى جمع وتأصيل التراث المصرى أن تدخل هذا الميدان وستجد غنى شديدا فى هذا التراث كما أدعو وزارة التربية والتعليم ان تعيد النظر فى كتب التاريخ والأدب ليكون لهذا التراث الثقافى مكان ولتاريخ هذا الجزء العزيز مكانه فى تاريخ هذه الأمة. مجرد شذرات بسيطة فى مسألة لا يجب أن تتاخر فيها الدولة أكثر من ذلك لتصبح مسألة كبيرة بينما هى ليست كذلك . هى حق للأخوة النوبيين يعطى لهذه البلاد قيمة ومعنى هى جديرة به اذا أدرك حكامها ذلك .

حقوق الأقباط وحقوق الوطن

ما الذى جعل للأقباط فى مصر مشكلة ؟وما الذى جعل هذه المشكلة تلح على الواقع السياسى والاجتماعى وتصبح موضوعا للمقالات والحوارات والاحتجاجات فى مصر وخارجها والمظاهرات ايضًا؟ ولماذا ظهر ذلك كله بهذه الكثافة التى يتجاهلها الكثيرون من الطرفين،من الحكماء والمسئولين، ويعلنون دائمًا بعد كل مشكلة أنه لا خلاف بين عنصرى الأمة وأن ما يحدث لن يؤثر فى سلامة مصر ولا وحدة عنصريها الكبيرين وما الى ذلك مما نسمعه فى كل وقت بينما الاحتقان قائم ويعبر عن نفسه كل يوم فى أشكال شتى؟ لا بد أن نعترف اولا ان مياها كثيرة للأسف جرت فى النهر منذ اواسط السبعينات وحتى الآن وخطورة هذه المياه أنها طالت الطبقات الشعبية كما طالت الطبقات الأعلى. لابد أن نعترف أن هناك مشكلة حقيقية وصلت الى الوجدان للرجل العادى عبر ثلاثين سنة وأكثر. والحديث فى الحقيقة طويل. لابد أن نعترف أن المد الوهابى الواسع الذى شمل تقريبا كل المسلمين وضع المسيحيين فى موقع العداوة وأحياناً موضع الكفر وهذا المد الوهابى لم يجد من يقف له بشكل علمى منظم وفق برامج تشمل التعليم والإعلام بالذات. وان كان شىء قد جرى فى الثقافة وبين كثير من المثقفين فلقد جرى فى مواجهة هذا المد دفاعا عن الدولة المدنية بشكل عام، لكن حتى هذا الدفاع ظل غريبا فى وطن يلجأ فيه الجهلاء والمتعلمون والسلطة ايضا بكثير من رموزها الى أهل الدين وعلى رأسهم المفتى الذى قد يكون الأخف ضررا. ولكن آلافا من المفتين الاخرين صاروا يحتلون

الفضائيات لا تطولهم أى رقابة باسم الحرية بينما تطول الرقابة غيرهم من السياسين. وغير الدعاة كان ولا يزال شيوخ الاف من المساجد يلعنون النصارى فى خطبهم واليهود ولا أحد قال لهم هذا باطل ولا أحد تابع هذه الخطب. لقد غابت الأحزاب الليبرالية أو العلمانية وغابت الدولة فراح الجهل يمرح وأصحابه فى غاية الرضا عن أنفسهم فهم يفعلون ما يفعلون لوجه الله الذى لا يرضى بهذا ولا أمر به لكن لا احد قال لهم هذا. وأخذ الأمر أبعادا أكبر فى المدارس التى فصلت فى فترة ما بين الطلاب المسلمين والأقباط وبعضها لا يزال يفعل ذلك وفى تغيير أناشيد الصباح فلم تعد يهتف بها للأمة المصرية ولكن صارت آيات قرانية وقراءة للقرآن فى بعض الأحيان رغم أن القرآن ليس مكانه الطوابير فصارالدين أهم من الوطن بينما لا دين مع نفى الوطن فضلا عما يقوله مدرسو الابتدائى وغيرهم للتلاميذ عن الأقباط مما ينفر التلاميذ المسلمين منهم. لقد عانيت كثيرا فى الثمانينات مع أطفالى ذلك الوقت لأنزع من رؤوسهم ما يقوله هؤلاء الذين يفعلون ذلك باعتباره واجبا دينيا وباخلاص وهذا هو الخطر الشديد. البسطاء من الوطن وهم الأغلبيبة صاروا يفعلون ذلك كأنه حقيقى. واذا ابتعدت عن المدارس ونظرت حولك فترى لافتة الاسلام تسبق كل شئ فى المطاعم والملابس وأسماء الشوارع والعمارات وجميع المبانى التجارية تقريبا ولا شئ من تاريخ هذا الوطن يستحق أن يرتفع اسمه فى أى مكان. كل ذلك وحالة الفقر الزائد والفائق والاهمال فى الصحة والتعليم والاهانات فى كل مشوار أو عمل وغيره جعل المسلمين، والأقباط فيما بعد، لا يميزون سبب أزمتهم. أصبح الأقباط أمام المسلمين البسطاء هم المشكلة فى المعاملات والحياة العادية بينما هم ليسوا سببا فى أى شئ من هذا الفقر أو القمع أو الامتهان. حدثت عملية إزاحة من المسلمين على خصم وهمى وصاروا يبتعدون عنه أو يتأففون منه أو يعاملونه باستهتار وغلظة وشاعت كلمات لا

معنى لها فى المصالح والهيئات وكل مكان مثل عدوك عدو دينك وأصبح الدفاع عن الدين هو موضوع المصريين البؤساء وليس موضوع الوطن ولا الأمة ولا إعمار الأرض ولا الديمقراطية ولا أى شئ مما كنا نعرفه منذ فجر النهضة من محمد على حتى سبعينيات القرن الماضى حين بدأ هذا المد الوهابى واكتشف المصريون فجأة أنهم كانوا كفارا من قبل. لا حول ولا قوة الابالله. وهكذا أفرز هذا التحول الخاطئ الذى ترتاح له الدولة لأنه يحول الجميع عن المطالب الرئيسية للوطن. الديمقراطية الحقيقية واطلاق عمل الأحزاب والمجتمع الأهلى والعدالة الاجتماعية والتنمية ومقاومة الفساد وغيرذلك مما بح صوت الكتاب فيه. والدولة بما تملك من جهاز أمنى تعرف أنها قادرة على السيطرة فى النهاية ولكنها للأسف لم تعد قادرة على منع الأخطار من البداية فقناعات العامة صارت كأنها الحقيقة. لذلك اندفعت حركة بناء الجوامع أمام الكنائس رغم أن الدنيا واسعة ، واندفعت حركة منع الاقباط من شعائرهم فى أى مكان كما يفعل المسلمون واستعد كل مسلم للمعركة إذا وقع خلاف بين مسلم وقبطى وبالطبع كان طبيعيا للجانب الآخر أن يشعر بالحصار وكان طبيعيا أن يصل الاحتقان إليه فهو الأقل عددا ومصرى مثل غيره وهذه أرض آبائه وأجداده مثل أى مواطن مسلم ومن هنا بدأت صيحات حقوق الأقباط واشتط بعضها ليصبح فى غير مكانه. وبقليل من التفكير والعقل نكتشف أن المطالبة بقانون دور العبادة الموحد ليس شيئا موجها ضد الإسلام ولا هو حق زائد للأقباط لكنه حق لهذا الوطن كى يصير طبيعيا. المطالبة بتمثيل أكبر فى الوزارة حق طبيعى لأن الأساس فى الوزارة هو القدرة العلمية والسياسية ولا أظن أن الأقباط أقل علما من المسلمين وان كانوا أقل عددا. وسياسة أن يكون وزير التموين قبطيًا ثم وزير المالية وهى السياسة السائدة منذ ثورة يوليو أمر ليس طبيعيا. لقد كان فى مصر دائما وزراء اقباط ويوما ما كان فيها

رئيس الوزراء قبطى. تدريس تاريخ مصر القبطية ليس شيئا ضد أحد من المسلمين أو غيرهم لأنه تاريخ حقيقى لمصر شأنه شأن الحقبة الفرعونية والحقبة اليونانية والرومانية والاسلامية والإنجاز القبطى فى تلك المرحلة أمر يشرّف أى مواطن ابتداء من العذاب الذى وقع على المصريين بسبب اعتناقهم للمسيحية الى الانجازات الحضارية العظيمة فى الفنون والآداب والعمارة وغيرذلك. انه جزء هام من تاريخ مصر لا معنى أبدا لتجاهله ويجب أن يعرفه الطلاب المسلمون كما يعرفه الطلاب الأقباط. يجب أن يعرفه المصريون لأنه أكثر من سبعة قرون من تاريخهم. مطالب الأقباط الى هنا أمر طبيعى جدا لأنها مطالب وطن يريد أن يكون سويا ويمكن للدولة لو أرادت أن تلبيها وفق حملة ثقافية وإعلامية وتعليمية والدولة هكذا لا ترتكب إثما ولا تنتقص من قدر الإسلام. شىء واحد لا أوافق عليه أن يكون للأقباط كوتة فى مجلس الشعب ,والصحيح هو أن ينزل الأقباط الانتخابات ويخرجوا من عزلتهم السياسية ويرسبوا مرة ومرات حتى ينجحوا كما كانوا ينجحون قبل الثورة وأن يكافحوا فى الأحزاب وغيرها .كذلك أن يكون لهم نصيب فى رئاسة المحافظات والجامعات والمؤسسات الاخرى أمر لا يضير يضير الوطن فى شىء لأن الأصل فيه كما هو فى المناصب الكبرى العلم والخبرة حتى يأتى يوم تتحقق فيه الديمقراطية كاملة فيكون رئيس الجامعة والمحافظ ورئيس الحى بالانتخاب كما كان فى مصر قبل الثورة وساعتها ستكون الكرة فى ملعب من يريد المنصب بصرف النظر عن ديانته.

لا أحد ... وما جرى في نجع حماد.

فى الأساطير اليونانية ملحمة عظيمة هى (الأوديسا)، وهى الملحمة الثانية لهوميروس بعد (الإلياذة) . الإلياذة تحكى قصة الحرب بين اليونان وطروادة التى عرفها الخاصة من القراءة، والعامة من السينما حيث أخرجت عنها هوليوود أكثر من فيلم رأيت أنا منهما اثنين .الأول كان اسمه (هيلين الطروادية) وكان اسمه التجارى" حصان طروادة"وعرض فى الستينيات والثانى كان اسمه (طروادة) وعرض منذ ثلاثة أعوام وكان لبراد بيت . وحصان طروادة كما يعرف الجميع من القراءة أو السينما هو الحيلة التى لجأ اليها اليونانيون بعد حصار دام لعشر سنوات لم يستطيعوا فيه اختراق حصون طروادة وكان صاحب هذه الحيلة هو أوليس أو أوديسيوس الذى اشار على قومه بالانسحاب وترك حصاناً خشبياً ضخماً داخله جنود يونانيون فإذا وجده الطرواديون ورأوا اختفاء الأعداء يأخذونه الى داخل المدينة ويحتفلون بالنصر ويسكرون ويعربدون فيخرج الجنود من الحصان ويفتحوا أبواب الأسوار ليندفع منها اليونانيون الذين لم يكونوا بعيدا . هكذا سقطت طروادة وهكذا انتهت ملحمة الإلياذة إلا أن أوديسيوس أو أوليس كان له ملحمة أخرى فى عودته إلى بيته فى إيثاكا فلقد ضل طريقه فى البحار والوديان ووضعت أمامه الالهة اليونانيه كل العراقيل لعشرين سنة كانت فيها زوجته(بنيلوبى) محاصرة بالرجال الذين يريدون الزواج بها وهى تعدهم أنها ستفعل ذلك بعد أن تنتهى من الثوب الذى تنسجه . وكانت بالنهار تنسج فى الثوب وبالليل تفك كل ما نسجته اذ كان لديها الأمل دائما فى

عودة زوجها الذى عاد فعلا وفتك بكل الرجال المحيطين بها . يرحمه الله توفيق الحكيم الذى قدم لمسرحية ايزيس بمقدمة جميلة قارن فيها بين وفاء بنيلوبى ووفاء إيزيس المصرية التى جابت البلاد حتى لبنان تجمع أشلاء زوجها اوزوريس الذى قتله أخوه ست من قبل ووزع أشلاءه فى كل مكان ثم نفخت فيه من روحها بعد أن جمعت أشلاءه وانجبت منه حورس الذى انتقم لأبيه وقتل عمه إله الشر ست. طالت المقدمة والله غصبا عنى فأنا أحب الاساطير اليونانية أكثر من أى شيئ قرأته . المهم أن يوليس او اوديسيوس فى عودته وقع هو وبحارته وهما على البر ذات مرة فى يد وحش اسطورى له عين واحدة حبسهم فى كهفه الذى ينام فيه وكان يأكل منهم واحدا كل يوم .لكن أوليس أو أوديسيوس ومعناها الرجل كثير الحيل استطاع أن يخدعه اذ صنع له هو وجنوده الخمر من العنب الذى يجمعه الوحش بكثرة ليأكله وأهدى الخمر اليه ووجد الوحش الخمر جميلة فسأله عن اسمه فقال «لا أحد» وبعد أن سكر الوحش فقأ له أوليس عينه وأزاح هو ورجاله الصخرة التى يغلق بها الوحش كهفه وهربوا .خرج الوحش وراءهم جاريا يصرخ ويده على عينه لا يرى وخرجت على صراخه كل الوحوش التى تشبهه وتسكن الغابة وسألوه من فعل بك ذلك؟ فقال «لا أحد ». وفى كل مرة يسألونه يقول لا أحد وكان أوليس ورجاله قد وصلوا الى سفينتهم ورحلوا عن هذه الغابة الملعونه .

تذكرت هذه الحكاية الاسطوريه والفيلم القديم وكيرك دوجلاس يضحك سعيدا بالفوز وتلمع عيناه بالانتصار وأنا اتابع ما جرى فى نجع حماد من اعتداء على مواطنين مصريين فقط لأنهم اقباط و تذكرت كل الحوادث التى جرت من قبل وراح ضحيتها الاخوة الاقباط منذ حادثة الزاوية الحمراء فى أواسط السبعينيات وفى كل مرة ينتهى الموضوع بلا أحد . وتم اختراع شيئ اسمه العرف فيجلس الاقباط مع المسلمين مع السيد المحافظ والسيد مدير الامن وينتهى

المجلس العرفى بالصلح ولا أحد يدفع ثمن الجريمة. المجالس العرفية أمر كان يلجأ اليه الناس فى المجتمعات القبلية قبل ان يعرف الناس القانون ونظام الدولة لكنه قفز الى حياتنا منذ ثلاثين سنة وأكثر ويتصور أهل الحل والعقد أنهم بذلك يئدون الفتنه ومن المؤكد أنهم يقولون فى أنفسهم الفتنة نائمة ولعن الله من ايقظها وأنهم بهذه المجالس العرفية صاروا مواطنين صالحين والحقيقة أنهم صاروا متخلفين لم تصل اليهم المدنية بعد واقصى أمانيهم أن يتم التقاط الصور والجميع يبتسمون. ولم يلاحظ أحد أبدا فى أى صورة أن ابتسامة الأقباط فيها شيئ من الانكسار أو عدم الرضا .والأهم لم يلاحظ أحد أبدا أن الاعتداء على الاقباط يعود ويحدث فى أشكال أخرى منحطة . المهم الصورة والاجابة الدائمة عن الجرم «بلا أحد» . فى الاسطورة اليونانية كان (أوليس) كثير الحيل وكان الوحش مفترسا يأكل من جنوده واحدا كل يوم فكانت حيلة (أوليس) سبيلا للنجاة لكننا هنا فى بلد للأقباط فيه مثل ما لنا. لا أريد أن أقول أكثر. ولا يأكلون واحدا من المسلمين كل يوم بل نحن الذين نأكل للأسف ورغم ذلك ينفذ الجناة كل مرة ..ننام على كارثة ونصحوا على لا أحد .هذه المرة ستختلف ولابد أن تختلف وتكاد تكون الاختبار الأخير لهذه الامة أن تعود الى رشدها وتنفض عنها الأفكار الوهابية المتخلفة التى عششت فى أذهان العامة ولا بد للحكومة أو الحكم من وقفة مع هؤلاء الذين يروجون لهذا الفكر فى كل مناحى الحياة وليس فيما يخص الأقباط فقط ابتداء من تغيير النص الذى وضعه السادات بلا مناسبة فى الدستورعن دين الدولة الاسلام. لأنه لا دين للدولة ولا أى دولة والدولة توصف بأوصاف سياسية مثل الديموقراطية وغيرها. وأن يكون شعار ثورة ١٩١٩ « الدين لله والوطن للجميع «هو الدرس الأول فى المدارس والمساجد وكل مكان وأن تتسع كتب الأدب والتاريخ الى الحقبة القبطيه أكبر اتساع لأنها كانت من أعظم الحقب المصرية وأغناها .كانت فيها

الاسكندريه عاصمة الدنيا ومصر كنزها . وأن توقف الدولة كل القنوات الفضائية المأجورة التى تشيع إسلاما ليس بالإسلام وأن توقف كل من هب ودب عن الفتوى وتصبح الفتوى وقفا على المفتى وأن يكون المفتى بالانتخاب لتكون الثقة فيه أكبر مقاوم لكل من تسول له نفسه بالفتوى. وأول الطرق الى ذلك أن لا يكون الجانى هذه المرة لا أحد .

بهدلة ٣٠ مليون مواطن

انتهى قانون الضرائب العقارية وصدر من مجلس شعب لا يهمه الشعب فى شئ ودخل حيز التنفيذ . ومع دخوله حيز التنفيذ حدث أغرب ما يمكن توقعه . تم انذار ملاك العقارات بالتقدم بعقود الشقق فى جميع أنحاء البلاد فى موعد غايته آخر ديسمبر-٢٠٠٩- والا فالغرامة ألفا جنيه لمن يتأخر.

لقد تم طلب ذلك من جميع ملاك العقارات فى مصر ومن كل الأماكن والأزمنة . أى العقارات القديمة التى بنيت قبل تحرير القيمة الايجارية فى نهاية التسعينيات والبنايات التى بنيت بعد ذلك . هل السيد وزير المالية لا يعرف مثلا أن المبانى قبل تحرير القيمة الإيجارية اما مؤجرة كلها أو على أكثر تقدير بها شقق مباعة تمليك لا تزيد على ثلث العقار وأن أوراق وعقود شقق هذه المبانى كلها موجودة فى الأحياء تتقاضى عنها عوائد سنوية؟. بالتاكيد يعرف . فلماذا اذن يذهب الملاك مرة أخرى لتقديم أوراق موجودة فى الأحياء؟ . هذه واحدة . الثانية ان وزير المالية صرح أكثر من مرة بأن العقارات القديمة كلها خارج قانون الضرائب العقارية وأن نسبة العقارات الخاضعة للقانون تقريبا خمسة فى المائة من العقارات على أرض مصر وفى أحياء بعينها هى الأحياء الراقية التى يمكن أن يصل سعر الشقق فيها إلى أكثر من ستمائة الف جنيه فلماذا يطلب من ملاك عمارات جميع الأحياء العادية والعشوائية التقدم بعقود الايجارات لشقق عقاراتهم وهى كما قلت من قبل موجودة فى الأحياء ؟ لماذا

لم يتم تحديد الأماكن التى ستخضع للقانون الجديد أو يمكن أن تخضع له وتستثنى جميع الأماكن الاخرى التى خضعت لقانون الايجارات القديم؟. أكثر من تسعين فى المائة من العقارات على أرض مصر خارج هذا القانون فلماذا هذه العملية الغريبة والتى لا معنى لها غير بهدلة الناس فى الطوابير وشراء أوراق ونماذج إقرارات ودفع دمغات يغازل بها الوزير موظفى الضرائب العقارية. ما معنى عملية لا معنى لها ولن تصل الى شئ جديد؟ . ما معنى أن يتقدم الملايين بأوراق موجودة أصلا فى الأحياء وفى ادارات الكهرباء وشركات المياه؟ .الا يعرف الوزير انه لا يسمح أبدا لصاحب عقار بادخال الكهرباء الى عقاره الا بموافقة الأحياء التى لديها عقود كل المؤجرين؟. لا يعرف. طيب. ألايعرف الوزير إنه قبل قانون تحرير القيمة الايجارية على المساكن الجديدة موجود فى كل حى القيمة الايجارية لوحدات كل عقار وضعتها من قبل لجان تقدير الايجارات القديمة وعلى أساس هذه القيمة يتم تحصيل العوائد السنوية؟. حد عاقل يفهمنى ما معنى الذى يحدث وأسبابه غير بهدلة الناس وجمع أكبر قدر ممكن من أموال على الاوراق والدمغات ثم الغرامات فيما بعد. قد يقول الوزير أو الموظفون الذين لا عمل لهم إلا قريفة الناس فى الأحياء أن بعض الشقق فى العقارات القديمة ربما تكون تغيرت أوضاعها بعد قانون تحرير القيمة الايجارية واشتراها بعض مؤجريها أو تركوها وباعها الملاك. طيب. هل هناك مالك فى الدنيا يفعل ذلك ولا يخطر الحى حتى يزيح عن كاهله عبء العوائد السنوية على الشقة؟ وهل هناك من يشترى شقة فى عقار قديم ولا يخطر الحى ليدفع بنفسه عوائد الشقة كإجراء يثبت على الاقل ملكيته لها أقوى من أى اجراء آخر خصوصا ان معظم هذه العمارات غير مسجلة على طول وعرض أرض مصر؟ ومثل هذه الإجراءات تؤكد الملكية كما أن أى مشتر لشقة قديمة يغير عقود المياه والنور باسمه والأهم من ذلك

كله أن ذلك اذا حدث يكون فى مناطق خضعت لقانون الايجار القديم وهى مناطق كلها خارج القانون الجديد اللهم الا ما سيحدث من رفع قيمة العوائد من ثمانية فى المائة الى عشرة فى المائة وللأسف ان ذلك يحدث دون المساس بالقيمة الايجارية القديمة .أى سيتحمله المالك نفسه الذى لا يحصل على شيئ أصلا لكن هذا موضوع آخر .يا وزير المالية. يادكتور غالى . من الذى قرر أن يذهب ثلاثون مليون مواطن لا علاقة لخمسة وعشرين مليون منهم على الأقل بالضرائب العقارية الجديدة إلى الأحياء ليقدموا اوراقا موجودة فى الأحياء؟ تصور حضرتك وحضرات القراء وحضرات السادة اعضاء مجلس الشعب الذى وافق على القانون أن كل سكان المناطق الفقيرة حول القاهرة والاسكندرية وكل المدن يجرون إلى الأحياء كالمجرمين ليعترفوا أن لديهم عقارات يسكن فيها بالايجار فلان وفلان وفلان الذين تملك الأحياء صورا من عقود ايجاراتهم او القيمة الايجارية لشققهم .كنت أتصور أن عاقلا يقول لك أن الذين يتقدمون بأوراقهم هم الذين بنوا عقاراتهم بعد قانون تحرير القيمة العقارية وفى أحياء كذا وكذا وكذا وهى الأحياء التى يمكن أن يصل سعرالشقة فيها الآن الى ستمائة الف جنيه أو تؤجر فيها الشقق وفقا لقانون الايجار الجديد بما يمكن أن يزيد على ستة الاف جنيه فى العام. وحتى هذه العقارات أسماء ملاك الشقق فيها موجودة بالأحياء وبشركات الكهرباء. المسألة اذن هى البحث عن موارد لإدارات الضرائب العقارية بالأحياء وتدويخ الناس اللى هما مش ناقصين دوخة لأنه فى النهاية سوف يلقى بكل هذه الأوراق فى الزبالة لأن مثلها موجود فى الأحياء من قبل . دلنى حضرتك على عقار واحد فى مصر دخلت اليه الكهرباء دون أن تكون عقود مؤجريه أو ملاكه فى الأحياء قديما أو حديثا .كنت أتصور لو أن هناك تفكيراً حقيقياً أن يتم تقسيم البلاد الى مناطق قابلة للخضوع للضريبة وأماكن معفاة لسنوات بحكم موقعها

وأن الأماكن القابلة للخضوع للضريبة تقوم الأحياء بالاطلاع على عقود التمليك فيها ثم تخرج اللجان لإعادة تقدير أسعار الشقق مرة أخرى وتحديد الضريبة على من يمكن أن يخضع لها من الملاك . أو أن يطلب من ملاك الشقق فقط وهم الذين قد ينطبق عليهم القانون والذين يؤجرون الشقق وفقا لقانون الإيجار الجديد أن يتقدموا بما يفيد ملكيتهم للشقق الى الأحياء مرة اخرى -لان ذلك موجود من قبل على الاقل بالنسبة للملاك ـ حتى يمكن اعادة تقدير اسعار الشقق والفيلات . كان هناك ألف طريقة حقيقية الا هذه الطريقة السخيفة التى تسوق ملاك العقارات كالبهائم ليعترفوا بأوراق قديمة مضى على أكثرها عشرات السنين وكلها موجودة من قبل فى الأحياء على شكل عقود باسماء المؤجرين أو على شكل قيمة إيجارية سبق تقديرها من الأحياء .تعذيب الشعب وبهدلته هو أساس تفكير هذه الحكومة ومنها طبعا وزارة المالية لا تطبيق القانون الذى هو جائر أصلا وكان هناك طرق اخرى للجباية سنتحدث عنها فى المقال القادم . يا دكتور بطرس اوقف هذه المهزلة .أن يتقدم ملاك العقارات بأوراق موجودة فى الأحياء من قبل وابحث عن طريقة أخرى لجمع المال تغازل به موظفى الضرائب العقارية . ما يحدث الآن من تعذيب ثلاثين مليون مواطن هو قمة العبث والسخافة والاستهتار بوقت الناس وعقولها.

مرة أخرى عن مهزلة الضرائب العقارية

(البدلة واللباس)

باعتبار أنه لا أحد يفهم فى مصر غير السادة الوزراء الذين لا يقفون أبدا عند ما يكتبه الكتّاب ربما يكون فيه فائدة من أى نوع حتى صار الكتّاب قوما من النابحين الذين لا معنى لنباحهم. ولم لا؟ مادام مجلس الشعب يوافقهم - الوزراء - وبالأغلبية على كل شئ ؟ هذا المجلس الذى ليس له من اسم الشعب فيه اى نصيب. بل ليتهم يلغون هذا الاسم ويعود الى اسمه القديم مجلس الأمة. حتى إذا كان فاشلا كما هو الآن لا يلصق الفشل بالشعب فقط ولكن بالأمة كلها حكاما ومحكومين لقد كان اطلاق هذه التسميه عليه من كوميديات الرئيس الراحل انور السادات الذى وهو يسميه كذلك جعل من نفسه رب العائلة فلم يعد للشعب اى نصيب من مراجعته هو الذى جعل المجلس يحمل اسمه وبالطبع ولا مراجعة وزرائه ما دامت الاغلبية للحزب الحاكم.

يبدو اننى سأذهب بعيدا عن موضوع الضرائب العقارية وعن بهدلة الناس أمام الاحياء لتقديم اوراق موجودة فيها، خاصة بالنسبة للمبانى التى أقيمت قبل قانون تحرير القيمة الايجارية وهؤلاء لا يقل عددهم عن خمسة وعشرين مليونا سواء من الملاك الاصليين أو الورثة وطبعا يدخل فيهم ملاك وسكان الأحياء العشوائية التى لن تصل أبدا أى شقة فيها إلى نصف مليون جنيه كما لن يصل إيجار أى بيت الى ستة آلاف جنيه فى العام. قلت اننى سأتحدث فى

القانون هذه المرة. قانون الضرائب العقارية وسؤالى ليس للسيد بطرس غالى وزير المالية فهو حر فى اختراعاته.

سؤالى للسيد فتحى سرور الرجل القانونى الكبير. حضرتك حين تشترى بدلة وتدفع لها ضريبة مبيعات هل كلما لبستها تدفع هذه الضريبة مرة اخرى؟ بالذمة والدين هل تختلف الشقة عن ذلك؟ يشترى الانسان شقة ثم يدفع عنها ضرائب كلما دخلها. ولمن؟ للحكومة التى تأخذ كل حقوقها مقدما من البنية الأساسية فى المياه والنور والمجارى. اسألوا ملاك العمارات هل يستطيع مالك أن يحصل على رخصة قبل أن يدفع نصيبه من تكلفة الصرف الصحى فى المنطقة وشبكة المياه؟ وهاذان هما المرفقان اللذان لا يزالان ملك الدولة. سنقول أن الملاك يمارسون التجارة ولا أظن ان ملاك العمارات التى تعرض كلها للتمليك لا يدفعون ضرائب عن تجارتهم خاصة هؤلاء الذين بدأوا فى النشاط بعد تحرير القيمة الإيجارية وبعد ان لم يعد أحد ملزماً بالقوانين القديمة التى كانت تشترط ثلثى المنزل للايجار وثلثه على الأكثر للتمليك طيب سنفترض أن الحكومة لا تستطيع ان تحصل منهم جميعا على الضرائب. هاهى ستحصل من أصحاب الشقق فلماذا يكون ذلك أكثر من مرة؟ أعنى كل عام والى الأبد.

هل هذا القانون دستورى يا دكتور سرور؟ أجب عن سؤالى الأول هل حين تشترى بدلة تدفع عنها ضرائب كلما لبستها ثم أجبنى عن دستورية القانون ثم الكارثة الكبرى أن الدولة تعرف جيدا أن أغلب من يشترى الشقق الآن يشتريها نصف تشطيب أى على المحارة باستثناء من يشترى من الشركات الكبرى فهذه حساباتها أمام الدولة وهى حرة معها تأخذ منها ضرائب او لا تاخذ وفى الغالب لا تأخذ بل وتعطيها الارض بملاليم لتبيعها شققا بالملايين والآن

تعاقب من اشتراها بالضرائب لا من باعها. أقصد الآن من يشترى من الاهالى وبعد ذلك يكون عليه تشطيب الشقة وكلما صرف عليها أكثر وصارت أجمل ارتفع ثمنها ودفع عليها ضرائب أكثر(الله الله). وبعد ذلك تمر السنون ويزداد أرتفاع الأسعار فيدفع ضرائب اكثر وهو ما زال ساكنا لم يستخدمها استخداماً جارياً من أى نوع يا سلام. وهكذا تتحول الشقة إلى عقاب لصاحبها أو صليب يحمله ويمشى به معذبا الى نهايته. ويكون عليه كما قال الوزير ذات مرة ان يبيع الشقة ويسكن فى مسكن أقل قيمة. يعنى كل حاجة وعليها اجابة لا يقبلها أى عقل بل قيل أن اصحاب الفلل القديمة مثلا التى طبعا ارتفع ثمنها جدا يستطيعون أن يتقدموا الى وزارة التضامن الاجتماعى للحصول على شهادات فقر وتدفع هى الضرائب بالنيابة عنهم. لا أعرف بما أعلق على هذه التفاهات ويعف لسانى عن أى حروف مناسبة.

بل وأيضا صرح الوزير أن هذا القانون سيسرى على الشقق المغلقة والتى استلمها اصحابها لكن لم يسكنوا فيها حتى وإن لم يتمكنوا بعد من تشطيبها. يعنى أى شخص يشترى شقة يبدأ على الفور فى دفع الضرائب. وطبعا أغلب أصحاب الشقق يشترونها بالقسط وعلى سنوات طويلة لكن هذا لا يهم أحدا المهم هو الضرائب التى اخترعها الوزير ووافق عليها مجلس الحكومة الذى يسمى مجلس الشعب .

وهكذا تكون الضرائب عقابا لكل من تسول له نفسه الكفاح من أجل بيت يأويه. سيقول اى مفتر وكاذب وبالقانون الذى يمكن مطه على مزاج الحكم والحكومة ان الدولة ترعى البنية الاساسية دائماً. طيب الا تحصل الدولة على ضرائب بالمليارات من الانشطة الأخرى التجارية ذات صفة الاستمرار والمفروض انها موجهة لخدمة

هذا الشعب الذى اختار حكامه ليفعلوا ذلك.

أليس هذا هو الذى يحدث فى كل بلاد الدنيا؟ شعوب تدفع الضرائب لتعود اليها خدمات وصحة وتعليم وغير ذلك مما لا أثر له عندنا. وأعود إلى سؤالى الاول هل يدفع الدكتور سرور ضرائب على البدلة التى اشتراها كلما هم أن يرتديها. أم يدفع عليها مرة واحدة حين يشتريها؟.

ولغير الدكتور سرور ولكل من صفق لهذا القانون الوحشى الظالم هل يحدث ذلك فى الملابس الداخلية مثلا؟ يعنى اللى يشترى لباس لا مؤاخذة يدفع عليه ضريبة كلما لبسه.

هكذا يصبح خازوق . الضرائب العقارية على هذا النحو لا تزيد عن خازوق لكل من تسول له نفسه ويفنى جزءا كبيرا من عمره ليستر نفسه. إلا إذا كنتم مصرين على معاقبة كل من يشترى شقة.

وسؤالى الأخير ليس للدكتور سرور لكن لجمعيات المساعدة القانونية وما أكثرها فى مصر لماذا لا تتقدمون الى المحكمة الدستورية لإيقاف وتعطيل هذا القانون ثم إلغائه؟

اسطوانات .. اسطوانات

فى اللغة العامية حين يتحدث شخص الى آخر حديث معاد ومكرر يقول الأول للثانى «نفس الاسطوانة» ولم تأت كلمة اسطوانة من فراغ لكن من شكلها كشيئ مستدير اذا تحرك دار حول نفسه فلا يقدم جديدا لكن هذا المعنى الجامع جاء أيضا من الأغانى التى ظهرت مع بداية القرن العشرين فهى تدور بنفس ما تحمله ولا يتغير . منذ أكثر من ثلاثين عاما ونحن نعيش فى هذه الاسطوانة فالحكومة دائما منحازة الى عديمى الدخل أو قليلى الدخل منذ سياسة الانفتاح الاقتصادى فى منتصف السبعينات من القرن الماضى ولا أحد يمل الكلام عن هذا الانحياز والنتيجة هى ازدياد معدومى الدخل الى درجة الانفجار فتجاوزوا نصف الشعب المصرى بينما يظهر كل يوم أغنياء لا أحد يعرف كيف واتتهم الثروة .اسطوانة أخرى هى التعليم والارتقاء بالتعليم والنتيجة كما نرى ازدياد نسبة الاميين إذ ينضم اليهم العدد الأكبر من خريجى الجامعات الذين لا يعرفون كتابة اسماءهم . واسطوانه أخرى هى توفير التامين الصحى لكل مواطن والبنتيجة طبعا كما نرى موت المرضى على ابواب المستشفيات وارتفاع اسعار العلاج الى ارقام فلكية وتوفير الدولة العلاج الجانى للقادرين من المسؤولين كما رأينا فى حالة واحدة لا نعرف سر اظهارها للناس الآن هى حالة الدكتور يوسف بطرس غالى الذى من المؤكد ليس وحده لكن شاء حظه العثر أن تظهر حالته الى النور فى وقت يسعى فيه لجباية جديدة

يسميها الضرائب العقاريه بحجة زيادة دخل الدولة الفقيرة وطبعا مانشر عن استنفاد اعضاء من مجلس الشعب لمئات الالوف من الجنيهات بحجة مرضى دوائرهم ثم نكتشف أن فى الأمر تجارة ما .من الاسطوانات أيضا اسطوانة نزاهة الانتخابات وطبعا ليست فى حاجة الى كلام عن عدم نزاهة الانتخابات. ومن الاسطوانات أيضا حرية التعبير وكل يوم نرى قضية وحكم على أحد الكتاب او الصحفيين وبحكم القانون ولا شيئ آخر. ومن الاسطوانات الرائجة أيضا توصيل مياه الشرب الى القرى البعيدة ونكتشف ان الذى يصل هو مياه الجارى . اسطوانات كثيرة جدا حتى أن الشعب زهد فى الاستماع اليها والى جانبها اسطوانات أخرى من المعارضة والبرامج الفضائية ففى كل يوم لا ينقطع هدير النقد لكل ماهو سيئ ولكن لا أحد يستجيب فأدرك الجميع أن هذا ايضا يدخل فى باب الاسطوانات وكأنه أمر متفق عليه بين الحكومة وهذه البرامج ان يسمع الناس الى اقصى حرية ممكنة فيرتاحوا لكن لا أحد من الحكومة او الحكم سيستجيب وهذه من الاسطوانات الشديدة الذكاء توطد أركان الحكم كل يوم أمام العالم لأنه تقريبا لايوجد أى نظام يتعرض لهذا الكم من الانتقاد ويستمر طويلا هكذا .ومن أجمل الاسطوانات التى ضحك بها على الناس اسطوانة انفلونزا الخنازير التى نشرت فيها الحكومة فى البداية صورا للمقابرالجماعية التى تستعد بها لاستقبال الموتى بالملايين ولولا صراخ بعض الكتاب عن هذا الهراء ومنهم العبد الفقير الى الله فى اكثر من مقال لاستمرت الاسطوانة المرعبة تدور. وأخيرا اكتشفنا أن الأمر كله سهل وتافه وهو ما قلناه بعد أن سافرنا الى أوربا أكثر من مرة ورأينا الحقيقة هناك أن لا أحد يرتدى كمامة مثلا .هذه الاسطوانة فشلت والحمد لله وتحولت الى اسطوانة مضحكة وهذا من فضل الله الذى خيب أمل الحكومة فى دفن الشعب . ونستطيع أن نمضى مع

الاسطوانات الى مدى بعيد جدا ولا اعتقد أن القارئ يخفى عليه بقية الاسطوانات ولكن أهم اسطوانة الآن هى اسطوانة البوتاجاز . هذه هى الاسطوانة الوحيدة الآن التى تهم المواطن فهى اسطوانة مفيدة رغم أنها من حديد لكنها فجاة وبقدرة قادر اختفت و هرت الطوابير الطويلة ووقع قتلى وسقط شهداء كما حدث ويحدث مع الخبز ولقد سبق هذا الاختفاء للإسطوانة الحقيقية اسطوانة كلامية موسيقية ايضا لوزير التضامن على مصيلحى قال فيه كل يوم إنه لابد من اعادة النظر فى دعم البوتاجاز .لم يقل اعادة النظر فى دعم اسرائيل بالغاز مثلا ، وأنه يفكر أن يخصص اسطوانتين لكل مواطن شهريا حتى لا يفوز اصحاب المحلات . المطاعم والمقاهى يعنى باسطوانات مدعمة رغم أنه يستطيع أن يحصر هذه المحلات ويفرض عليها استخدام الاسطوانات الكبيرة فقط ولا يدعم هذه الاسطوانات الكبيرة مثلا ويترك الناس فى حالها ، والذى حدث هو أن جميع الاسطوانات اختفت بعد ذلك وصارت الاسطوانة التى تدور بأحاديث الناس هى أنها ازمة من فعل الحكومة لإدخال الاسطوانات الى البطاقات .والمهم فى الأمر هو الكلام الذى يدور كالاسطوانة أن المستودعات تعطى الاسطوانات للباعة السريحة وذلك سبب الأزمة وانا شخصيا منذ أربعين سنة لم اشتر اسطوانة من مستودع بل دائما من الباعة السريحة ولم تحدث أزمة . على العكس هم يوفرون المشوار الى المستودع وهذا ليس بالقليل لذلك لم يصدق الناس هذه الاسطوانة. الباعة السريحة. وصدقوا اسطوانة الوزير عن الغاء الدعم الذى استدعى احداث الأزمة لتكون مبررا لذلك .وعندى سؤال واحد للسيد الوزير عن المستودعات كم عضوا فى مجلس الشعب يملك المستودعات ؟ ليته يقول لنا حتى ينقطع الكلام الذى يتحرك الآن على استحياء بأن غالبية المستودعات ملك لأعضاء فى مجلس الشعب قرروا الاغتناء فجاة بالإتفاق أو عدمه مع الوزارة او

الحكومة .وأنا كمواطن لم يعد تغضبنى الأسطوانات السياسية فى شيئ ووصلت الى يقين قديم لدى الشعب المصرى أن هذه بلد تمشى بقدرة قادر وأنها ستعيش رغم أى شيئ لكن المشكلة التى تؤرقنى جدا هى أننى سأضطر بعد أيام أن أبحث عن اسطوانة بوتاجاز ولن ينقذنى من ذلك مرورى كل يوم على الاسطوانة التى عندى داعيا لها أن لا تنفد ماشيا عليها بكفى وداعيا الله أن يستجيب لدعائى حتى لا أقف فى طابور ولا أبحث عن سوق سوداء مثل زماننا..

هذه الاكتشافات..!

ما الذى يحدث فى هذا الوطن. فى كل يوم يتم الكشف عن كارثة تتعلق بالفساد . قد لا يكون هذا غريبا. لكن الغريب هو أن يكون الاكتشاف أكبر من قدرة الانسان على التوقع. حوادث القتل تعلن عنها الصحف فترى فيها أنواعا من الحوادث لم تكن تخطر لك على بال. القتل بطرق مبتكرة والقتل فى العائلة الواحدة ومن أجل متاع زائل وغالبا متاع قليل. أصبحنا نقرأ من زمان عن القتل من أجل عشرة جنيهات والقتل بسبب الاختلاف على أجرة التذكرة فى الميكروباص والقتل لأن القتيل سخر من القاتل. وأصبحنا نقرأ عن قتلة صغار السن وقتلة أغنياء وأغنياء جدا وقتلة فقراء وهم المرشحون لذلك دائما. لكنى تعودت على هذه الحوادث التى لا أعرف لماذا لم أسمع عن دراسة لها فى معاهد البحوث الاجتماعية والجنائية وربما تكون هذه الدراسات موجودة والتقصير منى أنا.. أقول تعودت على هذه الحوادث كما تعودت على الزحام والطوابير وقلة الذوق عند التعامل مع سائقى التاكسى أو سائقى الميكروباص والنقل على الطرق. كما تعودت على السيارات النقل التى تجرى بلا رادع على الطريق الدائرى وازديادها المرعب بعد منعها على المحور الذى يأتى عليه السيد رئيس الوزراء وليس من أجل عيون سكان مدينة ٦ أكتوبر.. تعودت على الزحام فى كل مكان وعلى الضجيج والكلاكسات والشتائم التى تنهال على لمجرد أنى اقود سيارتى بشكل صحيح أو على مهلى قليلا.. أعود إلى البيت. إذا خرجت. وبالليل أفكر كيف ضيعت على نفسى أيام الشباب فرصة السفر إلى أوروبا والبقاء

هناك ثم أبتسم وأفكر لحظات وأقول قدر الله وما شاء فعل . افتح كتابا أو أدخل على الفيس بوك وأنا استمع الى الموسيقى التى صاحبت عمرى من البرنامج الموسيقى وأنسى كل من أساء الى بعد أن أكاد أجن لحظات لأنى لا أسبب مشكلة لاحد أبدا بينما يسبب لى الجميع المشاكل.. أندهش مثلا من سكان البيت الذين لا يدفعون ماهو مطلوب منهم للمياه والنور والبواب بسهولة حتى تراكمت علينا ديون المياه بالآلاف. بينما أنا أدفع دون كلام كل ماهو مطلوب منى لأنه فى النهاية لا يكفى وجبة غداء فى مطعم متوسط.. وأندهش من عامل السوبر ماركت الذى يضرب الأرقام بالأسعار على الماكينة وأراجعها مرة صدفة فأجد أنه حسب ربع الجبنة الرومى بمائة وسبعة جنيهات، وحين أراجعه يعتذر بلباقة ويلقى باللوم على الماكينة.. وانتظر الصنايعى الذى استدعيته لعمل ما فى البيت فلا يأتى أبداً فى موعده.. وهكذا.. وهكذا أستطيع أن أسوق إليك مئات الحالات التى يعرقل بها الآخرون حياتى، حتى صرت متوقعا لكل شر ولكنى دائما بالليل لا أنام إلا بعد أن أقرأ أو أكتب ولابد أن أسمع البرنامج الموسيقى الذى يجعلنى أنسى كل ما حولى حتى أسرتى.. اتعجب أحيانا حين استمع إلى الطرب العربى الأصيل من عبدالحليم حافظ وأم كلثوم وفايزة ونجاة وفيروز.. وأقول لنفسى كل هذا الكلام عن الحب ولا ترق مشاعر الناس، ثم أتذكر أن الأجيال الجديدة تسمع أشياء أخرى تثير التوتر والأعصاب وتجعل علاقة الحب قائمة على التناطح والشتيمة.. ولابد أن لها أثراً كبيراً فى عمليات التحرش والطلاق أيضاً، إلى جانب ما نعرفه من فقر وافتقاد التعليم والتربية للتعليم والتربية! تعودت أجل.. وتعودت على اكتشاف عمليات نهب يومية لثروات الوطن لا تتوقف الصحف عن نشرها لكنى حقيقة لم استطع أن أمنع نفسى عن الدهشة مما كتب عن مليون جنيه انفقت على علاج الدكتور يوسف بطرس غالى.. إلا أنى بسرعة وجدت

نفسى أقول إنه فعل ذلك لأنه رأى أنه حقه ولابد أن آخرين يفعلون مثله.. هو فقط سيئ الحظ لأنه جابى الضرائب الذى يقول دائماً إن الخزانة خاوية.. لقد كان هذا الموضوع بمثابة اكتشاف حقيقى ليس لأنه وزير ويجب معارضته لكن لأن الله وسع عليه وكان عليه أن يتعفف.. لكن حتى هذه هو حر فيها لأنه لابد يرى غيره لا يتعفف.. لكنى صدمت بالاكتشاف العظيم وهو ملايين الجنيهات التى تصدر بها قرارات علاج على نفقة الدولة عن طريق عدد من أعضاء مجلس الشعب لتتم التجارة فيها، قبل أن يتم العلاج بها.. ولاشك أن الكثيرين يعرفون أن هناك من أعضاء مجلس الشعب من يتاجرون فى الوظائف وتأشيرات الحج.. أو على الأقل هذا كلام شائع جعلته أحد موضوعات روايتى الاخيرة «فى كل أسبوع يوم جمعة» التى هى صورة كاريكاتيرية عن الحياة الهزلية فى مصر الآن.. مجرد موضوع عابر تقرأه على لسان صاحبه، أحد الشخصيات، فتضحك وكنت وأنا أكتب اتصور أننى أبالغ وأقول لنفسى وهل الأدب إلا مبالغة.. لم أتوقع أبداً التجارة فى الصحة.. اعرف طبعا أن هناك تجارة فى الأعضاء لكن أقصد أن تكون التجارة من أعضاء مجلس الشعب فى الصحة.. ربما يخفف عن الذى يتاجر فى الوظائف أن صاحبه سيتوظف ويعيش.. لكن كيف يخفف عن المتاجر فى الصحة أن صاحبه سيشفى، بينما ان الصحة أول ما يجب ان تكفله الحكومة للشعب.. أى حكومة من فضلك.. صدقونى لقد كان هذا اكتشافا بالنسبة لى وقولوا عنى ما تقولون من سذاجة.. هذا حدث لا تصل إليه أى رواية مهما بلغ بها من خيال لأن الكاتب ـ أى كاتب ـ حين يكتبه سيبكى وسيتوقف عن الكتابة، لأنه سيرى المريض يدفع رشوة أو عمولة او سمها ما تشاء.. سيراه بعينيه متجسداً، رغم أنه خيال، سيبكى الكاتب ولن يكون قادراً على الكتابة.. والآن وأنا أكتب هذا المقال بعد أن انتصف الليل وأسمع الموسيقى تنساب من

الراديو، أجد نفسى واعياً بالدنيا حولى على غير العادة مع الموسيقى كارهاً لحالتنا التى تجاوزت كل أشكال الانهيار.. ولا أريد أن أغضب وأسب أى أحد.. لذلك انهى المقال.

ليه اتحاد العمال وليه وزارة الإعلام؟

ما أكتبه الآن هو رأيى فى النقابات دائما وهكذا أرى عملها ولقد استخلصت هذا المعنى من تاريخ النقابات فى الدنيا فالنقابات وهى تقود الاضرابات او الاعتصامات لا تفعل ذلك من اجل تغيير نظام الحكم لكن من أجل تغيير نظام العمل . هكذا ظهرت النقابات مع ظهور النظام الرأسمالى فى أوربا وأميركا ولقد دفع كثير من النقابيين حياتهم من اجل الحصول على مطالب العمال المشروعة والحقيقية فى مواجهة رجال الاعمال وهكذا كان حال النقابات فى مصر قبل الثورة .ومنذ ١٩٥٤ وهو العام الذى أعدم فيه خميس والبقرى فى كفر الدوار بعد اضراب عمال النسيج عن العمل أدرك الجميع ان النظام النقابى فى مصر لن يعود إلى طبيعته .شيئا فشيئا صارت النقابات تابعة للدولة وخصوصا بعد الغاء الأحزاب ثم التأميم وصار للنقابات اتحاد عام خاضع للدولة وميزانيته من الدولة ويعين رئيسه من الدولة وللأسف ظل هذا الوضع على حاله حتى الآن رغم دخول المجتمع منذ أكثر من ثلاثين سنة عصر الرأسمالية والمشروع الخاص. ولا تترك الدولة العمال وغيرهم يكونون نقاباتهم بعيدا عن هذا الاتحاد فتصبح بسيطرتها عليه موالية لأصحاب العمل. وتجد نفسها كل يوم فى قضايا ومشاكل لم تعد من عملها لكنها قضايا ومشاكل يحسمها الصراع بين العمال وأصحاب العمل. لأنه فى النهايه لا يستطيع أى صاحب عمل أن يفصل كل العمال ولا يستطيع كل العمال ترك العمل . كلا الطرفين يحتاج أحدهما للآخر وعليهما أن يصلا للصيغة التى تحفظ لكل حقه وكرامته . هذا حدث ويحدث فى كل النظم الرأسمالية. والذين

يذهبون الى أوربا او اميركا يرون كل يوم إضرابا واعتصاما فى حماية الأمن ولا يطول الاضراب لأن أصحاب العمل لا يتأخرون عن لقاء قيادات العمال وشرح وإيضاح كل شيئ والاستماع الى كل شيئ ثم الوصول الى الحل السريع .الإعتصامات تطول هنا جدا وكذلك الاضرابات وتدخل الدولة طرفا فيما لا يجب أن تكون طرفا فيه ومن ثم يطمئن أصحاب الأعمال وبدورهم يضعون ودنا من طين وأخرى من عجين وتبدأ اتهامات العمال بالاتصال بجهات سياسية يسارا أو يمينا أو أجنبية اذا زاد الامروتحول الدولة الموضوع إلى سياسة وهو ليس بسياسة ومن ثم لا تنتهى المشكلات وقد يتحول هكذا الى سياسة فعلا . للدولة وجهة نظرها أنها تشجع الاستثمار والحقيقة أن هذه من أخطائها فتشجيع الاستثمار لا يعنى أن يتحول العمال إلى عبيد على العكس أكبر تشجيع للاستثمار هو ترك العلاقة بين العمال وأصحاب العمل بينهما فقط والمستثمر الذى لا يستطيع أن يصل الى حل لمشكلات ومطالب عماله أولى به أن يترك الاستثمار أو لابد أنه لن يستمر كثيرا وربما يختفى بعد أن يجمع ما يريد من أرباح ويترك البلاد كلها .هناك رجال أعمال كثيرون لديهم مشاريع جبارة ولا نسمع عن اضرابات عندهم ولا اعتصامات لسبب بسيط جدا أن حقوق عمالهم مصانة وتزداد كل يوم ومن ثم أيضا تصبح هذه المشروعات أملا لكل الباحثين عن العمل .أكتب ذلك بمناسبة اضراب عمال الكتان الذين يعتصمون أمام مجلس الشعب ومجلس الوزراء وبمناسبة وقوف اتحاد العمال ضد نقابة موظفى الضرائب العقارية الحرة التى أرادوها مستقلة عن اتحاد العمال بعد اعتصام طويل وهم لم يفعلوا الا الصواب .يخشى اتحاد العمال ووزيرة القوى العاملة على الاتحاد اذ ربما تتوالى النقابات الحرة ومن ثم يفرغ الاتحاد من أعضائه. والحقيقة أنه يجب ان يفرغ من أعضائه ويزال من على الأرض وتتحرر النقابات وفيما بعد اذا رأت لنفسها أن تكوّن اتحادا ما فلتفعله. أى النقابات وليس الدولة .هل سيستمع أحد الى هذا

الكلام ؟ لا اظن . لأن الدولة التى فتحت الباب واسعا للرأسمالية لا تزال تتمسك بكثيرجدا من القوانين والنظم الاشتراكية ولا تنتبه أبدا الى هذا الخلل.

الأمر نفسه ينطبق على وزارة الإعلام التى تقريبا لا تسيطر الا على اتحاد الاذاعة والتليفزيون وهو ليس بالقليل .لقد فتحت الدولة الباب على مصراعيه للقنوات الفضائية الخاصة وتمسكت هى بهذا الاتحاد الذى فيه أكثر من عشرين قناة واذاعة ورصدت له الميزانيات الضخمة ولا يحقق مكاسب بل لا نسمع الا عن الخسائر والمديونيات التى اذا سددت تسدد من أموال الشعب .أعنى ضرائبه. بينما القنوات الخاصة تكسب وتوزع من مكاسبها على العاملين فيها وترتفع فيها الرواتب الى أرقام لم نعهدها وهم أحرار. لكن الرواتب حين ترتفع فى اتحاد الاذاعة والتليفزيون فهم ليسوا أحرارا لأنها ليست من مكاسب منظورة أو معروفة بل من ميزانيات مخصصة سلفا من ميزانية الدولة التى هى من أموال الشعب. لذلك بدأ هذا الاتحاد يلجأ الى «خصخصة «بعض برامجه واذا كانت التجربة قد نجحت فى بعض البرامج فلم ينتبه أحد الى أن هذا النجاح هنا سيؤدى إلى فشل هناك فى البرامج التى لم «تخصخص» وسيثير الغيرة والحسد وستجد نجاح برنامج تم «خصخصته» يجذب اهتمام المسؤلين اليه أكثر من غيره وهكذا ستجد برامج تعمل وفقا لمبادرة القطاع الخاص وحافزه وأخرى تعمل وفقا للدولاب الوظيفى البطيئ، وبرامج تدفع مقابلا ماديا لضيوفها وأخرى لا تدفع لا لضيوفها ولا لعامليها الشباب بالتحديد. وفى النهاية لو قارنت رغم ذلك بين مايدفعه الاتحاد لمحطاته وبرامجه التى تخضع له عملا ومالا ستجده أكثر عشرات المرات مما يدفعه كفيل واحد لبرنامج يفوق نجاحه كل البرامج الأخرى . والأمر نفسه يمتد الى المسلسلات وغيره من البرامج التى لا تستطيع منافسة المنتج الخاص . باختصار ستجد

فى النهاية أن هذا الاتحاد لا يقدم مايجتمع الناس حوله فينصرفون حتى وإن لم ينسوا أن هناك برنامج أو أثنين ممتازين . اتحاد الاذاعة والتليفزيون الذى هو تقريبا وزارة الإعلام كلها لابد من تحريره من ملكية الدولة وهذا لا يتم الا بالغاء وزارة الإعلام التى لا معنى لها فى ظل نظام اقتصادى حر أو ما نسميه بالنظام الراسمالى الذى تتغنى الدولة به منذ أكثر من ثلاثين سنه ولا تقبل تحريره بل تصر أن يظل مشوها .حد دافع حاجة من جيبه؟ « ما رأى السيد يوسف بطرس غالى الذى يبحث عن نفقات فى هذه النفقات الاشتراكية؟

خرق المطه

لقد كان أحد أسباب تخلف أوروبا فى العصور الوسطى سيطرة الكنيسة على الحكم واعتبار الحاكم هو ظل الله على الارض .واحتاجت الشعوب الأوروبية إلى قرون من الكفاح والتضحيات حتى تم الفصل بين الكنيسة والحكم بشكل حاسم ونهائى مع الثورة الفرنسية عام ١٧٧٩ . بعدها انطلقت أوروبا فى طريق التقدم فوصلت إلى ما وصلت إليه الآن.ولم يكن حال العالم الاسلامى بأفضل من أوروبا فحكامه أيضا لم يكونوا يختلفون فلهم القداسة الإلهية التى جعلت البلاد والعباد فى حالة من التخلف الكبير يصل إليها الغازى فتفتح أبوابها له . ففى مصر مثلا مشهد له دلالته تجده عند المقريزى وابن إياس وهو وداع أهل القاهرة لطومان باى بالزغاريد وهو خارج لملاقاة جيوش العثمانيين ثم أهل القاهرة وهم يستقبلون بالزغاريد أيضا جيوش العثمانيين بعد هزيمة طومان باى .

لقد وجد الشعب طريقا له للخلاص وهو الابتعاد الروحى عن البلاد التى لم تعد بلاده, وصل غايته فى النخبة المصرية من المشايخ التى قادت الثورة ضد نابليون بونابرت وجيوشه ثم بعد خروج المحتل الفرنسى رأوا أن تسليم البلاد لحاكم اجنبى هو محمد على هو الأفضل فهم ليسوا أهل حكم من زمان ,ولولا أن الصدفة جعلت من محمد على حاكما قويا لديه طموح كبير ما تقدم هذا البلد. لقد كان أول وأهم قوانين محمد على هو حرية العبادات بعدها انطلقت البلاد فى تقدمها الذى نعرفه. ومنذ عصر اسماعيل خفت الكلام عن ارتباط الدين بالحكم وتعلم الشعب ذلك ولم يعد يسمح به.

ومهما قيل عن قصور هنا أو هناك فى الحياة الديموقراطية فلقد كان لأسباب أخرى على رأسها وجود الاستعمار والتفاوت الطبقى ولم يكن الدين من بينها. أقول هذا الكلام الذى قلته من قبل عشرات المرات وقاله غيرى للذكرى التى قد تنفع المؤمنين ولأننا الآن نواجه فى حياتنا بمئات من الحكام الذين جعلوا من أنفسهم ظل لله على الارض.حكام بالآلاف من الشعب والنخبة لم يعد يهمهم من أمر هذا البلد شئ إلا حق الله كما يقولون فتفرغوا لمراقبة سلوك الناس وملابسهم وأكلهم وشربهم وما يكتبونه وما ينتجونه من فنون واعتبروا حق الله مقدما على حق البلاد والعباد وليتهم حتى يعرفون حق الله الذى هو خاص بكل انسان فالانسان الفرد هو الذى سيحاسب عما جنت يداه ولن يحاسب الله شخصا آخر عن ذنب لم يقترفه إن كان هناك حقا ذنب. حق الله لم يعد من عمل الحاكم لكنه صار حقا لأى شخص. عالم أو جاهل. بل صار مشاعا للجهلاء أكثر مما هو مشاع للمتعلمين . بل أصبحنا محاصرين بالأقوال والأفعال عن حقوق الله الى درجة جعلتنا نهمل حق الأرض ومن عليها فى الحرية وإطلاق المواهب والقدرات التى منحها الله لنفر من عباده . وإذا كان الناس العاديون قد استجابوا فقرا أو اقتناعا او جهلا فلا يعنى ذلك أن مايحدث صحيح . وإلا فانظر حولك وقل هل هذه بلادنا التى كان يضرب بجمالها الأمثال؟ ستقول لى أنه الفساد ،سأقول لك لماذا لاتواجه الفساد؟ ستقول لى إنه الحكم سأقول لك لماذا لاتواجه الحكم؟ ستقول لى غضب من الله لابد أن نتقيه، سأقول لك هل خصك الله بحقوقه؟ وهل من حق الله أن تتدخل فى طريقة حياة الناس وملبسهم ومأكلهم وطريقة كلامهم وكل هذه المظاهر التى لاتغنى ولا تثمر؟وهل هان حق الله إلى هذه الدرجة التى جعلت أى شخص يفعل ما يراه دون رادع من قانون فى بلد المفروض أن نعيش فيه تحت قوانينها. أقول هذا الكلام متألما حزينا لأن أى شخص الآن جعل نفسه ظل الله على الأرض، وهكذا

قام من قام بمهاجمة نفر من البهائيين وأحرق ودمر بيوتهم فى بلد يصرخ مثقفوه كل يوم بالدعوة الى المجتمع المدنى، وهكذا يقوم من اختلسوا حق الله كذبا بمهاجمة الأقباط كل يوم ويقوم من اختلس حق الله بمهاجمة الكتاب والفنانين زينة أى أمة. لقد تعلمنا مبكرا جدا فى المدارس أن الأمم تأخرت كثيرا عندما كان الحاكم هو ظل الله على الأرض فهل تنتظرون تقدما لأمة نصف أهلها وأكثر ظل الله على الارض؟

أنا والفتاة والسنجة

يحتاج موقف الوعاظ الاسلاميين الذين يهلّون علينا من الفضائيات المفتوحة الى وقفة لوجه الله والوطن، فالحاصل، على خلاف تاريخنا الحديث أمر فاق الاحتمال.

الصحف تطالعنا كل يوم بحوادث الاغتصاب والتحرش الجنسى بشكل كبير يوضح إلى أى حد صارت المرأة مستهدفة جنسيا فى مصر وفى أى سن مثل حادثة الهرم التى اعتدى فيها سائقا الميكروباص على السيدة التى تجاوزت الخمسين والتى كانت تصرخ فيهما أنتم مثل أولادى، أو حادثة الفتاة التى فى الحادية عشرة التى حملت وانجبت .وبين العمرين هناك مئات الحالات يظهر أقل القليل منها فى الصحف .

نتحدث عن الفقر والبطالة وانعدام فرص الزواج كأسباب وراء هذه الظاهرة التى صارت ملمحا قبيحا فى حياتنا المصرية، وأنا أعرف ذلك وأقدره، ولكن هذه الأحداث بهذه الكثرة صارت نمطا عاديا فى السلوك ، إنها تفتقد للجانب الأخلاقى بالمعنى البسيط جدا، احترام الناس لبعضهم . المرأة التى هى أمك أو اختك او أم صديقك أو أخته أو جارتك.

هذه الأفكار البسيطة التى كنا نتعلمها فى المدارس والبيوت والمساجد زمان . وهذا المعنى الأخلاقى صارت منعدمة تماما رغم كثرة الوعاظ والوعظ الذى يحاصرنا فى كل مكان، فى العمل

يقوم الموظفون بترك عملهم والصلاة واستماع لواعظ منهم. وفى الشوارع تبث الجوامع الصلوات والخطب من الميكروفونات ، وفى المدارس لا يخلو طابور الصباح من الوعظ وهكذا حتى ليظن الانسان أن هذه الأمة بلغت من التدين أكبر مما بلغ المسلمون الاوائل . لكن كل هذا الوعظ موجه ضد المرأة .

كل هذا الوعظ تمثل فيه المرأة دور الشيطان . فهى كائن جنسى لايجب أن يظهر منه شئ، لاشعرة ولا كف يد. وأخيرا لم يعد النقاب كافيا . فأفتى أحد الوعاظ بضرورة إظهار عين واحدة تحت النقاب لا عينين لأن فى العينين فتنة. وإذا كانت المراة هى المسئولة عن إغواء الرجل وفتنته. فشعرها العارى سوف يشكوها إلى الله يوم القيامة بعدد شعراته.. يا سلام. وأنها حين تظهر جزءا من جسمها تدعو الرجل لأن يبصبص لها ويعتدى عليها . هكذا قال أحدهم على شاشة دريم أيام ازمة الحجاب مع وزير الثقافة . قال بالحرف الواحد «إننى، هو يعنى، رغم سنى الكبيرة حين أرى امرأة غير محجبة سأبصبص لها » وهكذا صار هناك يقين عند الرجال أن الغواية، من المرأة. ومادامت هى المسئولة فلا ذنب عليهم إذا هاجمها أحدهم.

وهكذا تسبب وعاظنا المسلمون فى اعتبار المرأة كائنا خاطئا يدعو الى الخطيئة .. بعد أن كنا نتعلم زمان أن المراة هى أمك أو جارتك أو أم اولادك فيما بعد كما اسلفت . المرأة عند الشعراء هى الأرض والخصوبة والوطن. أجل كانت المرأة دائما رمزا للعزة والكرامة . فصارت المرأة هى الشيطان الذى يدعونا الى الخطيئة . والذنب عليها.

الهجوم على النساء مرخص لأنهن يدعين اليه بطريقة مشينة هى عدم ستر اجسادهن . باعتبار الرجال أيضا حيوانات جنسية لا عقل لها ولا دين.

أقول هذا الكلام ليس بسبب الحوادث التى اقرأ عنها كل يوم . مهاجمة النساء وخطفهن . ولكن أيضاً لانى كنت بطلا فى حادثة من هذا النوع فى الاسكندرية .

كنت أقطع بسيارتى الطريق من الكيلو واحد وعشرين الى الطريق الصحراوى وفى منتصف المسافة . عند الطريق الدولى الجديد وجدت فتاة يحاصرها ثلاثة شبان .. واحد منهم ترك الموتوسيكل وإثنان فوق الموتوسيكلين الآخرين .كانت تتراجع أمامهم بهدوء حذر.فالطريق كله سيارات مسرعة . وأدركت أنا انها فى ورطة . فشكلها لا يمت للشبان الثلاثة بصلة . السيارات تمر بهم ولا أحد يتوقف حتى من باب الاستطلاع. توقفت أنا وبمجرد نزولى امسكت الفتاة بملابس الشاب الذى ترك الموتوسيكل وصرخت فى وجهى .هذا الولد قليل الأدب .وصارت تضرب فيه بقدر طاقتها. لكنه أفلت وجرى وقفز على الموتوسيكل .

استطعت أنا الإمساك بالموتوسكيل من الخلف ويبدو أنه قديم فلم يستطيع الشاب الانطلاق به إلا أنى رأيت الثانى يترك الموتوسكيل ويجرى ناحيتى رافعا سنجة طولها أكثر من نصف متر. تركت الموتوسيكل لأتفرغ لحامل السنجة .لكن الله ستر وتراجع هو بمجرد تركى لزميله وركب الموتوسيكل وفر الثلاثة .فى هذه اللحظة توقفت أكثر من سيارة لتسأل هذا الرجل ذا الشعر الابيض. الذى هو انا . عن الذى يحدث .وأنا وقفت أفكر كيف انتهى الأمر بخير . وكيف لم يتوقف احد لانقاذ الفتاة فى الوقت الذى توقف الكثيرون من أجلى لأن شعرى أبيض واستحق العون .وبعد دقيقة وصلت سيارة بها أخت الفتاة وزوجها .ارتمت الفتاه فى حضن اختها تبكى وعرفت من النقاش بينهم أنها جاءت من القاهرة لتلحق بهم فى المصيف فى سيدى كرير وأنها ركبت من القاهرة اوتوبيسا أخبرها السائق أنه سيصل الى الكيلو واحد وعشرين حيث تنتظرها أختها وزوجها لكن

فى الطريق عرفت انه لن يصل إلى الكيلو واحد وعشرين بالضبط بل قبله بكيلومترين حيث سيأخذ الطريق الدولى إلى محرم بك .. ولم يكن أمام الفتاة وزوج اختها إلا اختيار بداية الطريق الدولى تنزل فيه لتجدهما .وظل زوج اختها يتابع السائق بالموبايل حتى يصل قبله لكن حادثة عند الكيلو واحد وعشرين أخرته دقيقتين .فى هاتين الدقيقتين حاول هؤلاء المجرمون الاعتداء على الفتاة وربما خطفها. دقيقتان فقط فصلتا بين الموت والحياة . فى هاتين الدقيقتين ظهرت أنا صدفة وسلم الله أنهم كانوا جبناء وسألتنى أخت الفتاه « هل أخذت نمر الموتسيكلات ؟»

قلت لها كدت والله أفعل ذلك .. لكنى تذكرت أن ذلك لن يجدى فحتى لو تم القبض عليهم ستكون الأسلحة قد اختفت وسيقولون إنها هى التى كانت تقف على الطريق تعاكسهم ، وسيصدق الناس . فالمرأة هى سبب الغواية فى هذا العصر الذى امتلأ بالوعاظ المأزومين جنسياً ولن ينالكم إلا الفضيحة . وانصرف الجميع غير مصدقين نجاة الفتاة وانصرفت أنا غير مصدق نجاتى وأفكر الى أين ياخذنا هذا الوعظ وإلى أى درك اسفل سننتهى بالمراة التى لا يراها الوعاظ اكثر من دعوة جنسية؟ هل هذا هو الاسلام ؟

الفتوى بين الجد وجلسات الحشيش!

أصبح فضيلة المفتى وفضيلة شيخ الأزهر حديث الناس كل يوم وحديث الصحف كل صباح . رغم أن هناك عشرات من الشيوخ الذين يفتون فى الفضائيات كل ساعة.حديث كل من فضيلة شيخ الأزهر والمفتى هو الذى يستأثر بالتعليق كله ,والسبب طبعا واضح فشيخ الازهر على رأس أكبر مؤسسة دينية فى مصر والعالم الاسلامى ,وكذلك المفتى على رأس دار الإفتاء .. الذى يدهشنى فى المسألة ليس الصواب والخطأ فى الإفتاء. فالصواب والخطأ أمر قائم دائما. وقديما كان الذى يفتى ينهى الفتوى بقوله "والله أعلم- باعتبار أن باب الرأى مفتوح خاصة فى المعاملات ,باعتبار أن العبادات لاتقبل الرأى والتجديد فلا يستطيع أحد مثلا أن يقول لك أن الصلاة مثلا ليست فرضا أو يزيد أو ينقص فى عدد الركعات .. فالعبادات واضحة فى القرآن الكريم ,وواضح طريقة ادائها وأوقاتها والرخص المتاحة لأى شخص ألا يقوم بها.

الذى يدهشنى هو أن المجهود الكبير للدولة . والمجهود الأكبر للمجتمع المدنى ,وللمفكرين المجددين فى العصر الحديث فى مصر. كله يضيع حين يضع فضيلة شيخ الأزهر رأسه فى أمور سياسية واجتماعية.. لقد وضع فى مصر منذ أكثر من نصف قرن . نظام قانونى يحاسب المخطئ والمجرم ويحدد طرق عقابه العصرية اللتى لا تتخلى عن فكرة العقاب . ولكن تضعه فى شكله العصرى المناسب لشكل المجتمع . ومعنى أن ياتى شيخ الازهر ليفتى بجلد الصحفيين أو غيرهم من أصحاب الرأى وهو شكل عقاب لم يعد يتناسب مع العصر .

معنى ذلك أن شيخ الأزهر ليس مع الدولة المدنية لأنه يجعل من الدين طريقا للحكم . وبهذا تختلط علينا الأمور.هل الدولة تتبنى مناهج الإخوان مثلا والجماعات الدينية.شيخ الأزهر بهذه الفتوى ينكر أن هناك قانونا وضعيا وله قوته إذا تم تطبيقه بحق على القذف والتشهير وليس على الرأى. وهو هكذا لايختلف عن جماعة الإخوان أو أى جماعة تريد أن يكون الدين مرجعية فى كل شئون حياتنا .الأمر نفسه صار ينطبق على فضيلة المفتى فهو لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا قال فيها رأيا أو فتوى، حتى صرت اسأل نفسى هل نحن جهلاء بالدين إلى هذا الحد؟ أعنى السؤال عن حوادث السيارات وحرق قش الأرز والشهادة فى الغرق وغيره. وإذا كان المفتى يريد أن يعلو صوته صوت شيوخ الفضائيات الذين جعلوا حياتنا أكبر لخمة ممكن تصيب الانسان حتى تدنت الاسئلة الى حد هل ترسل المرأة ثيابها إلى المكوجى؟ وهل يجلس الرجل على كرسى جلست عليه قبله سيدة لحظة قيامها والكرسى ساخن ؟يا سلام.وهل تخلع المرأة ثيابها أمام الكلب وغير ذلك من الأسئلة التافهة والإجابات الأتفه . لقد هانت الفتوى يا سادة. وإذا كان هناك من يتربح من ذلك فى الفضائيات الخاصة والعامة ، فلا أظن شيخ الأزهر والمفتى يتربحان من ذلك.كما أن المفتى يخونه أحيانا موعد الفتوى .فلم يكن لائقا الإفتاء بأن غرقى الزوارق على شواطئ اليونان وإيطاليا غير شهداء فى وقت تتقطع فيه أكباد أهلهم وأكبادنا عليهم.كذلك فتوى عدم مسئولية سائق السيارة عن الضحية إذا وقفت امامه التى جاءت بعد يومين من دهس سيارة شرطة لفتاة ، فذلك يفتح الباب ،وفتحه فعلا. لاتهامه بأن فتواه سياسية، ثم هل يحتاج الأمر إلى فتوى أصلا ، ألا توجد نيابة وقوانين وتحقيق تحدد مدى مسئولية الجانى والجنى عليه؟ الأمر نفسه ينطبق على قش الأرز فحرقه لا يحتاج الى فتوى لا من الأزهر ولا من المفتى ، فهو أمر مجرّم قانونا لأنه يلوث البيئة.

للأسف شيخ الازهر والمفتى يحولان مصر إلى دولة دينية . ويضربان كل جهد ممكن لقيام الدولة المدنية . وسواء كانا مع الحكومة أو مستقلين فهما يسيئان للحكومة ولقيمة الأزهر وقيمة دار الإفتاء الأكبر فى العالم الاسلامى . إن الفتوى التى نحتاجها الان بقوة هى هل نحن فى حاجة فعلا الى الإفتاء بعد ألف وخمسمائة سنة من الإسلام؟

ثم هناك أمر آخر أشعر به من زمان هو أن هناك عددا هائلا من الناس يطلبون الفتوى فى كل شئ وعندما تسمع الاسئلة تتأكد أن هولاء الناس إما جهلة أو يستخفون بعقولنا وعقول المشايخ. أو أن فى الأمر نوعا من الهزار والتسلية ,مادامت الفضائيات مفتوحة على التليفونات . والاسئلة من نوع خلع المرأة ثيابها أمام الكلب أو إرسالها للمكوجى. واحد سأل مرة فى إحدى الصحف هل أكل برادة الحديد فى رمضان يفطر الصائم؟والشيخ المسئول عن هذا الباب فى الجريدة أجاب على السؤال ,تصوروا..!!

هذا النوع من الناس غالبا يسلّى وقته وأحيانا يخيل إلىّ أن أحدهم يتصل يسأل وهو فى جلسة حشيش . لامؤاخذة . وأن بعض النساء فى مجلس مرح يتسلين بالاتصال بالشيوخ على الشاشة . لقد تأكد لى ذلك من تكراره.فمنذ عشر سنوات أو أكثر وأنا أسمع هذه الأسئلة التافهة وهذا الاهتمام الذى لا معنى له من المشايخ . فى ذلك الوقت استمعت الى رسالة لا أنساها واعذرونى لأنها سخيفة جدا . كانت هذه الرسالة فى برنامج تليفزيونى شهير اسمه - فتاوى وأحكام- مقدم البرنامج وهو شيخ جليل . يقول أنه وصلته هذه الرسالة من مستمع كريم فلان الفلانى يقول إنه مريض بمرض غريب وهو أنه لا يستطيع أن يسيطر على الرياح التى تخرج من جوفه . فهى تخرج فى أى وقت و حتى وهو يصلى فى الجامع أو فى البيت ما يسبب له أذى نفسيا كبيرا بين الناس . هل هكذا صلاته مقبولة

ام لا؟ طبعا أخذ الشيخ الأمر بجدية وقال له أنه لا جناح عليه لأنه مريض ، لكن عليه ألا يصلى فى الجامع مؤقتا حتى يتم علاجه. كنت فى ذلك الوقت أتناول غدائى فى المنزل ، فأغلقت التليفزيون ومن يومها لم أعد اشاهد هذا البرنامج ليس لأنى قرفت ولكن لأن الشيخ الجليل لم يفطن الى أن السائل بيهزر مثلا أو أن ذلك أمر لايحتاج الى الفتوى ! وبعيدا عن الهزار فى أسئلة السائلين أو الجهل أو التجارة فى الفتوى فشيخ الأزهر والمفتى يجب أن يبتعدا عن جعل الدين مرجعية سياسية أو اجتماعية .فالمجتمعات كانت موجودة قبل الأديان والقوانين الاجتماعية عرفها الإنسان قبل الأديان والقانون الوضعى فيه كل أشكال العقاب المناسبة للعصر ، والمناسبة لردع الجرائم والمجرمين ، والمقدس فى الدين ليس شكل العقاب لكن العقاب نفسه، وهو أمر سبق فيه الناس الأديان كما قلت وأكدته الأديان لأنه منجز بشرى عظيم أقام به الإنسان حضاراته . ولم يكن معقولا لدى الشعوب التى هبطت فيها الرسالت أن يقال لهم أن العقاب بالحبس مثلا أو الغرامة ، لكن هذا صار مفهوما الآن وصار الرجم والجلد وتقطيع الأيدى من خلاف هو غير المفهوم .

شيخ الأزهر الجليل... والانتخاب.

توفى الأمام الأكبر الدكتورمحمد سيد طنطاوى , ودفن فى البقيع بالمملكة العربية السعودية مع صحابة رسول الله .وأصابنى حزن جليل على الرجل الذى لم أكن أعرفه ولم يحدث أننى قابلته قط لكن كنت فى السنوات الأخيرة أتابعه وأتابع المعارك التى تثار حوله ومعه وأشعر بكثير من الشفقة عليه . فهذا رجل يترأس أكبر وأعظم مؤسسة دينية إسلاميه، الأزهر الشريف بما له من تاريخ وسمعة وتأثير يمتد عبر العالم الاسلامى كله لكنه دائما ما يجد نفسه فى مواقف سياسية لا أظن انه كان مناسبا أبدا أن يوضع فيها فى نظام يرفع شعار الدولة المدنية والمواطنة وفصل الدين عن الدولة أو الحكم . كان يطلب من الرجل الافتاء فى أمور سياسية آخرها مسألة الجدار العازل وهى وغيرها يختلف حولها السياسيون وفقا لانتماءاتهم ورؤاهم السياسية وكان الرجل لا يتأخر فى الفتوى أو الرأى كما يجب على رجل الدين فما بالك برجل دين يجلس على أكبر مؤسسة دينية .ويجد الرجل نفسه محل انتقاد من المعترضين على سلوك الدولة وتصرفها ويذهب اليه الصحفيون والمذيعون من الفضائيات وبرامج التوك شو فيبدو دائما منفعلا عصبيا , وكانت كل الفتاوى تذهب مع الوقت ومع اختفاء المشكلة أو انتهائها ولا يفكر أحد أن الرجل أفتى وفقا لما قدّم اليه من معلومات وأن هذا لا يعنى رأيا سياسيا مع الدولة أوضدها , وكنت دائما اسأل نفسى عن الأثر العصبى السيئ الذى خلفته وراءها اسئلة الصحفيين والمذيعين فى الرجل. ليس هذا فقط لكن أيضا حتى فى المسائل الدينية فحين

زجر فتاة صغيرة ترتدى النقاب قام انصار النقاب بمهاجمته هجوما كبيرا وغير انصار النقاب هاجموه لزجره طفلة صغيرة والمحايدون أيضا أبدوا دهشتهم من تصرفه وهى دهشة كانت تصب فى صالح أصحاب النقاب وكنت أشعر أن الرجل ضاق بهذه الأمور الصغيرة التى أخذت أكبر مما يجب من اهتمام المسلمين وغير المسلمين ومنها النقاب مثلا الذى جعله المتشددون من رجال الدين هو نهاية الدنيا والآخرة وطريقنا الوحيد للجنة وبداية الاسلام ومنتهاه ورقى البلاد وتقدمها وبالليل يجلسون يقتسمون غنائم القضائيات الرجعية او يتلقون التعليمات من مشايخ الجزيرة العربية الذين لن يتوقفوا الا بعد أن تخرب البلاد وأعنى مصر بالتحديد لانها اذا تقدمت تتقدم الامة العربية واذا تاخرت فعلى الأمة السلام . والمسالة كلها لعبة سياسية منحطة لا علاقة لها بالدين من قريب او بعيد. كنت اشعر ان شيخ الازهر الجليل يوضع فيما لا يجب ان يوضع فيه ومن ثم كان يبدو كثيرا فاقد الأعصاب وكان يبدو لى ،وهذه حقيقة ، غير خبير باسئلة الصحافة والمذيعين الذين حين يسألوه سؤالا يبدو هجوميا لا يقصدونه هو ولكن يقصدون أن يحصلوا منه على رد على الذين يثيرون هذه الاسئلة ويوضحون الأمور لكنه كان يماهى بين السائل والسؤال فيتعصب على السائل الذى سرعان أيضا ما ينشر او يذيع ذلك باعتباره خبطة صحفية .كنت دائم الاشفاق على الرجل واسأل نفسى لماذا لا يرفض الحديث الى الصحافة والفضائيات . لماذا لا يرفض الاستجابة للدولة فى أمور تخص سلوك الدولة ؟ وكانت الاجابة الوحيدة التى رأيتها مقنعة أن الرجل معين فى منصبه كشيخ الأزهر لا يمتلك رفاهية الرفض ولا حرية الابتعاد عن الأمور اليومية الجارية. وأنه لو كان رئيسا منتخبا للأزهر كان الأمر يختلف . هكذا يجب ان يكون شيخ الأزهر وهكذا كان قبل ثورة يوليو . كما كان رؤساء الجامعات والمدن والأحياء. وكل المؤسسات العلمية والمدنية .وهكذا يكونون فى الدول الديموقراطية . بهذه الطريقة

فقط يستطيع شيخ الأزهر أن يملك رفاهية رفض ما تطلبه منه الدولة التى تعانى من شيزوفرينيا مزمنة إذ تعلن إنها دولة مدنية ثم تطلب شهادته كرمز دينى متصورة أنها ستكسب جموع المسلمين . هكذا يملك شيخ الأزهر الصمت أمام اسئلة الصحافة والفضائيات ورفض الحديث فيما لا يجب أن يتحدث فيه غير عابئ بأى انتقاد يمكن أن يوجه اليه من أصحاب هذه الصحف أو محرريها أوهذه الفضائيات أو مذيعيها .لكن انتخاب شيخ الازهر وهو ما كان أمرا عاديا فى مصر فى النصف الأول من القرن الماضى صار أمرا ينتمى الى التاريخ كما صار ذلك مع رؤساء الجامعات والمدن والاحياء وكل المناصب المدنية التى تقوم عليها البلاد . هل يستطيع رجال الأزهر الآن أن يرفعوا هذا الشعار , انتخاب رئيسهم حتى يصبح الازهر مؤسسة دينية لا تتأثر بقوة أو جاه أو سلطان ؟. أظن أنهم يستطيعون لو أرادوا .وهل سيكون لذلك تاثيره السلبى على الحكم ؟ لا اظن . على العكس سيتم بشكل قوى فصل الدين عن الدولة ولن تذهب الدولة الى الأزهر تطلب رأيا فى سياستها وهى تعرف أن هذا الرأى لن يصدقه أحد لأن أى شخص مغرض أو غير مغرض سيقول الدولة هى التى عينته ورأيه غيرسليم. تخسر الدولة التى لا تدرك ذلك أبدا حتى الآن وتخسر مشيخة الازهر هيبتها وقيمتها ويتعصب شيخ الأزهر ويتوتر ويصبح مادة للصحافة وهو فى الحقيقة عالم جليل يجب أن نضعه على رؤوسنا .

أكتب هذا الكلام حزينا لموت الرجل لكن فى النهاية الموت معلق على رقاب العباد وأشعر براحة الرجل الكبرى وهو يدفن فى البقيع بين الصحابة الأجلاء بعيدا عن أرض الوطن وترابه وأعرف أن هذه كانت وصيته ولعله رأى أن ذلك هو الرأى الدينى الوحيد الذى لم يطلبه منه أحد فى سلطة أو معارض لها .رحم الله الامام محمد سيد طنطاوى ورضى عنه كما رضى عن الصحابة أجمعين .ويارجال الأزهر لن تكونوا بعيدين عن الانتقاد من الحكم أو معارضيه إلا إذا

كـان شيخكم بالانتخاب .

البحث عن رئيس

النظم الجمهورية فى كل الدنيا لها طرق واضحة ومحددة لانتخاب حكامها. إما نظاماً رئاسياً يكون الحاكم فيه رئيس الجمهورية الذى يختار وزراءه او رئيس وزرائه كما نرى فى اميركا مثلا او فرنسا أو نظاما وزاريا يكون فيه رئيس الوزراء هو أعلى سلطة فى البلاد ويكون منصب الرئيس شرفيا كما هو فى الهند أو اسرائيل مثلا .

وفى كل الأحوال يخضع الجميع لرقابة برلمانيه تستطيع ان تقيل الرئيس او رئيس الوزراء إذا خرج عن الشرعية وتجاوز ما هو مسموح له.

كنا ندرس ذلك فى المدارس فى المرحلة الاعدادية من فضلك زمان وكبرنا ورأيناه حولنا فى العالم كما درسناه.كنا ندرسه ابان الفترة الناصرية التى كانت السلطات فيها كلها فى يد رئيس الجمهورية وكانت لا تزال أغرب سلطة مخولة له هى حل مجلس الامة أو مجلس الشعب. فيما بعد بقرار رئاسى يكتمل شكله الديموقراطى باستفتاء لا يذهب اليه أحد ينتهى بالإجماع ! يعنى باختصار نحن لم نعرف النظام الجمهورى أبداً منذ ثورة يوليو حتى الآن فالرئيس هو الحاكم الأول والأخير والذين تحته معاونون أو منفذون لسياسته لأنه طبعا لن يستطيع الرئيس أن يفعل كل شئ بنفسه .

المسألة إذن تعود للسيد الرئيس وقدرته على الاحتمال. وإذا قارنا مثلا بين الرئيس حسنى مبارك والسادات سنجد ان الرئيس مبارك

يتمتع بقدرة أكثر على الاحتمال فهو لا يترك نفسه للعصبية التى كانت كثيرا جدا ما تأخذ الرئيس السادات وتجعله يشتم خصومه بشكل صريح وأحيانا بألفاظ لا تليق .

لم يحدث أن تورط الرئيس حسنى مبارك فى شئ من هذا، بل على العكس حين حكمت إحدى المحاكم على الكاتب إبراهيم عيسى بالحبس سنه بتهمة العيب فى ذات الرئيس عفى الرئيس عنه. وقال إنه لا مشكلة بينه وبين أحد فى مصر .

لن اقول إن الرئيس مبارك أخذ درسا من أخطاء السادات كما يمكن ان يقول الباحثون فى السرائر لكن سأقول إن ذلك راجع لطبيعة الرئيس مبارك وهى طبيعة لا تخفى على أحد من الذين اقتربوا منه او رأوه فى مناسبات معينه وأنا واحد من الذين رأوه أكثر من عشرين مرة فى لقاءاته بالكتاب والمثقفين فى معرض الكتاب أو فى قصر العروبة بمناسبة معرض الكتاب. ولقد كان دائما فى كل هذه اللقاءات لا ينفعل من أى سؤال بل كان كثيرا ما يطلب من كتاب بعينهم أن يقولوا سؤالهم السنوى وكان مايتصور بعض الكتاب أنه سؤال قوى جدا يرد عليه الرئيس بهدوء وغالبا ضاحكا وأحيانايحول الأمر الى نكتة بحيث كانت الساعات الثلاث للقاء تتم بسهولة ويخرج الجميع مبسوطين تسبقهم ضحكاتهم وأنا منهم والله لذلك لم أفكربوما فى السؤال رغم عملى فى وزارة الثقافة.

وما كان أسهل أن أطلب من الدكتور سمير سرحان رحمه الله أن يضع اسميفى قائمة السائلين .

أقول هذا لأقرّب لكم شخصية الرئيس الذى يبدوا دائما هادئا مطمئنا بينما يأكل المثقفون انفسهم و يسمعهم باهتمام شديد وابتسامة ودهشة لأنهم فيما يبدو يعملون من الحبة قبة والبلد

ماشيه والحمد لله لدرجة اننى أكثر من مرة تخيلت إنه يقول فى نفسه عن هؤلاء المتحمسين إنهم مجانين تاعبين نفسهم وما فيش مشاكل!! . انا الذى تخيلت ذلك كثيرا وأشهد أن الرئيس كان دائما عف اللسان حتى لو ذهب الحديث إلى من يتصور المثقفون أنهم اعداء مصر .. كان السؤال الذى لم يسأله احد لا فى المعرض ولا فى الأحزاب ولا فى الصحافة هو متى يتغير نظامنا الرئاسى ليكون الرئيس منتخباً وليكون الرئيس مسئولا أمام البرلمان حتى فاجأنا الرئيس نفسه وأعلن أن منصب الرئيس سيكون بالانتخاب. ولا شك أن مجرد ظهور هذه الفكرة كان نقطة تحول سياسى رغم أن ماحدث بعد ذلك من قواعد وضعها مجلس الشعب أكدت أنه لا فرصة لأحد غير الرئيس أو رئيس الحزب الوطنى. وطبعا لم يفكر أحد فى وضع حدود لسلطة الرئيس او ان يخضع منصب الرئاسة الى سلطة البرلمان كما هو فى النظم الرئاسية كلها . والغريب يا أخى أن عددا كبيرا ممن دخلوا الانتخابات الرئاسية منافسين للرئيس دخلوا بعد ذلك السجن او رفضتهم أحزابهم وأحدهم أظن مات فى حادثة سيارة وآخر قيل ان ابنه طلب الحجر عليه لاختلال قواه العقليه. ما علينا .نجح الرئيس رغم ان حركة الرفض لترشيحه مرة خامسة كانت كبيرة ولم يفكر أحد أن تكون المعركة مثلا حول أهم نقطتين تجعلان النظام الرئاسى جديرا باسمه. أعنى خضوع الرئيس لسؤال البرلمان وتحديد مدة الرئاسة. انطلق حديث التوريث وأصبح الشغل الشاغل للصحافة الحزبية والمستقلة وانتظر الجميع رأى الرئيس الذى نفى ذلك فى البدايه وقال فى النهايه إن جمال لم يتحدث معه فى الأمر فاعتقدها الكثيرون تأكيدا للتوريث وتشتعل المعركة والوقت يجرى والأيام تمر والمعركة الانتخابية تقترب ومرت السنوات الخمس منذ انتخب الرئيس والحديث فى هذا الموضوع لا ينتهى وكنت اتصور ان الأحزاب والمنظمات الاهلية والمستقلين الذين

تجوا فى مجلس الشعب بكثافة لم تحدث من قبل كان عليهم استغلال المساحة المتاحة من الحرية فى التظاهر والاعتصام وغير ذلك من الطرق السلميه من أجل تحديد مدة الرئاسة بفترتين ووضع سلطة الرئيس تحت رقابة البرلمان فهو الأهم ليكون لدينا نظام رئاسى حقيقى لكن الذى جرى هو التوريث ومعارضته فى الصحف. وفى مجلس الشعب كانت الاستجوابات عن الحجاب والكتب والافلام الخليعة وكأن الجميع اتفقوا دون إعلان على أن انتخاب الرئيس هو غاية المراد. وحتى فى ذلك مرت الايام ولا يوجد حزب واحد يتحدث عن مرشح له والكلام الآن عن محاولة إقامة جبهة من بعض الأحزاب والتجربه تقول أن ذلك لن ينجح لانه لم ينجح من قبل وفى اللحظة الأخيرة سيخرج حزب عن الجبهة إذا حدثت كما جرى من قبل وسينفرط العقد وتهرول بعض الأحزاب لترشيح رجالها وبعضها من الاحزاب الصغيرة سترى إنه من الافضل الحصول على المليون جنيه التى ستدفعها الدولة من خزينتها لمساعدة الأحزاب فى حملتها ويا لها من ديموقراطية! .

دولة أهه بتدفع فلوس لمنافسة الرئيس فيه أحسن من كده؟والسؤال هو لماذا تعجز الاحزاب الكبيرة حتى الآن ان تحدد مرشحا لها وتبدأ من الآن الحركة بين الناس وهذا عملها ولماذا لا تبدأ الاحزاب حركة كبيرة من اجل تغيير المادة التى تنص على ان يكون الحكم مدى الحياة وان يخضع الرئيس لرقابة البرلمان . لماذا لا تترك الاحزاب موضوع الترشيح للرئاسة وتجاهد بقوة وبجميع اشكال الجهاد السلمية لتغيير ما أشرت اليه وبعد ذلك يكون البحث عن رئيس .أظن أن ذلك هو العمل الحقيقى الذى يجب ان ينغمس فيه جميع السياسيين المعارضين وجميع الاحزاب . أن يكون لدينا نظام رئاسى حقيقى أولاً ثم بعد ذلك يتم البحث عن رئيس.

هذا الهجوم علي العقل
شعبان والمعارضة

لم أكن افكر أبدا فى كتابة هذا المقال مهاجما لأحد ـ أى أحد ـ لكنه التليفزيون،هذا من ناحية.

من ناحيه أخرى أنا أعرف وأومن من زمان أن من يملك يحكم ولكن ليس الى النهاية فالناس تستطيع فى أى مكان وأى زمان أن ترفض وأن تقاوم.

مقولة من يملك يحكم قديمة فى التاريخ قيلت فى معرض الهجوم على الاقطاع فى أوربا ثم قيلت فى معرض الهجوم على الرأسمالية فى أوروبا ايضا وقيلت فى مصر بعد ثورة يوليو فى معرض الهجوم على العصر الملكى وستظل تقال دائما ويستخدمها كل من لا يملكون ضد من يملكون تبريرا لأعمالهم أو ملكياتهم فيما بعد وهى مقوله ليست خاطئة فى معناها المجرد لكنها فقط تخفى إمكانية المقاومة التى جعلت النقابات فى الدول الرأسمالية تحصل للعمال والمجتمع على مكاسب عجزت عنها الأنظمة الشيوعية لشعوبها التى اكتشفت أيضا أنها لم تكن تملك وأنها الدولة التى كانت تملك كل شئ فانتفضت هذه الشعوب بدورها على النظام الشيوعى وتبخر فى أكبر معاقله.

هذا كلام يبدو لى كبيرا جدا عل ما أريد التحدث فيه لكن لم أجد غيره معبرا عما جرى فى التليفزيون المصرى فى رمضان ذات مرة.

التليفزيون المصرى الذى هو ملكية عامه لكنه لا يقبل إلا بسياسة الدوله ولا يتيح الفرصة للمعارضة إلا بحساب وكل ذلك عرفناه وعرفه الجميع فانصرفوا عنه الى الفضائيات المصرية والعربية.

استغنوا عنه بوصلة دش لا تكلفهم غير ثلاثين جنيها أصبحت تساوى الملايين المصروفه عليه والتى تصرف لتطويره.

وحكاية التطوير مهما قيل فيها فهى سياسيا لا تعنى شيئا لإنه سياسيا لن يتم أى تطوير إلا فى شكل البرامج وديكوراتها وهذا كله لا يضايقنى ولا يضايق أحدا من المهتمين بالسياسة أو الشأن العام لانه كما قلت هناك عشرات المحطات التى يمكن أن يلجأ اليها الناس ويجدوا فيها كل شىء ابتداء من حوادث الطرق الى شتيمة الحكومة عن آخرها.

انا أتحدث هنا عن أكثر من قناة مصرية وعلى رأسها النايل كوميدى التى المفترض فيها ان تروّح عن البشر فاذا بها تشن أكبر حملة على العقل المصرى وكأنما هناك سباق على مسخرة كل شىء من العلم الى التدريس الى النشرات الاعلاميه الى الآثار الى التاريخ المعاصر والقديم . كل شئ فجاه اصبح قابلا للتقليد والمسخره بشكل كثيف وشامل كأنه لم يعد لدينا شيئ حقيقى او محل احترام وتقدير ليس هكذا ابدا يكون التقليد الذى بلا شك لدينا ممثلون من كل صنف ولون بارعون فيه وليس هكذا نعبر عن مواهبنا يا سادة. الكوميديا ضحك ولكن ليس على العلم والعمل ولا على انجازاتنا التاريخية والعقلية. الكوميديا ضحك على القيم القديمة مثلا على التزمت، على سوء الفهم، على الادعاء، على الحذلقة وغير ذلك من مظاهر السلوك، لكن ليس كما قلت على العلم والثقافة والتاريخ والأبطال. هذا لم يفكر فى عمله الغوغاء فما بالنا بجهاز نملكه،

آسف تملكه الدولة يفعل ذلك ؟ هل رأت الدولة ان تسبق المحبطين من شعبها وتجرد كل شئ من قيمته، هذه المسخرة من العلم والتاريخ والحضارة فى برامج تجعل مسؤول الاثار استاذ محتاس وكل ما يقال عن الاثار هجص او مدرس يسخر من كل الاساتذه والتدريس والعلم واللغة والنحو والصرف والقواعد وكل ما يخص العملية التعليمية، من الذى سمح بذلك الهجوم على العقل المصرى بهذه الكثافة تحت شعار التسلية والضحك.

يا أسيادنا إن مسرحية واحدة عرضت فى النصف الاول من السبعينيات من القرن الماضى وهى مدرسه المشاغبين أنتجت اجيالا لا تحترم العلم ولا التعليم ولا من يقومون به. لقد اراد بها المؤلف انتقادا للعمليه التعليميه مبكرا عن غيره ومحذرا لكن الخروج على النص جعلها على غير ذلك .

وللاسف ساعدها انهيار العملية التعليمية ذاتها فهل ترون ان كل شئ فى مصر قوى وبخير ولا يتاثر من هذه السخرية. اقصد المسخرة. لا اظن .

إذن لماذا ؟

هو الهجوم على العقل، الحقيقة على البقية الباقية وما أقلها عند المصريين الآن وهم يعانون ما يعانون من غلاء واهمال ويهربون الى الآخرة. الذى تفعله النايل كوميدى هو محاولة واسعة ومركزة وقوية للأسف لتسطيح وعى الناس الذى صار مستعدا لذلك ليفعل بهم من يشاء ما يشاء.

لقد اخترت هذه القناه لأروح عن نفسى قليلا فوجدت اننى امام تفاهات لا تليق ابدا بمن يفعلها أو وافق عليها ورحت أفكر ان ذلك

يمكن أن يكون قصورا فى الفهم للتقليد أو غيره من فنون الفرجه ثم رحت أقول لنفسى ربما هو اندفاع أكثر فى منافسة قناة موجة كوميدى ثم لما أعيانى التفكير لم أجد غير أنها محاولة نشطة ومركزة لتسطيح الوعى وساعدنى على ذلك ما فعلته هذه القناة من قبل حين جعلت شعبان عبد الرحيم المطرب الشعبى الذى أحبه لكن فى مكانه كشخص يروح عنا فى بعض الاحيان. اقول جعلته يحاور طائفة كبيرة من المثقفين والمعارضين وينطق بأشياء لا يعيها تلقن له عبر السماعة خلف أذنه فضحك الناس على شعبان والمعارضة والمثقفين معا وقلت هذه مرحله جديده بعد السخرية من قادة الفكر الذين لا اعرف كيف وافقوا على ذلك وعدت الى الشعار القديم من يملك يحكم. ولكن هذا لا يليق ابدا بمن يتحدثون عن المستقبل.

اقول هذا آسفا لنفسى لا لأحد انا الذى لا اعرف الجمود فيما اكتب ولا اتردد فى الدفاع عن الجديد لكن ما تفعله هذه القناة تجاوز كل شئ لانه يتجه بالعقول الى الدرك الاسفل من الاستخفاف والحياة معا وسوف نرى آثار ذلك فيما بعد .

الدولة المركزية.. المأساة المقبلة

ينقسم الكتاب والمفكرون هذه الأيام فى تشخيص حالة الشعب المصرى، بعضهم يراه سلبيا خانعا أمام القضايا التى تمس حياته بل أمام القضايا المصيرية ويضيف هذا البعض أن هذه كانت حالة الشعب المصرى على طول التاريخ فمصر أطول مستعمرة لم ينقطع فيها الحكم الأجنبى منذ عام ٥٢٥ قبل الميلاد حين احتلها الفرس ثم من بعدهم اليونان فالرومان فالعرب فالعثمانيون فالمماليك فالفرنسيون فالإنجليز وحتى ثورة يوليو التى حكم فيها المصريون أنفسهم لأول مرة. حقا كان الشعب المصرى ينتفض ضد الغزاة لكن بعد الغزو، وكانت هذه الأمم كلها تحارب معركتها من أجل السيطرة على مصر وكان المصريون غالبا يتفرجون إن لم يرحبوا بالغازى الجديد. البعض الآخر يرى الشعب المصرى غير ذلك فهو لم ينقطع عن الثورة أو الانتفاضة ضد الغزاة وكان على طول تاريخه صانع حضارة قدمت للبشرية الكثير فى الفن والحياة والآثار الفرعونية خير شاهد على حضارة المصريين وأنه حتى حين يغلب الشعب على أمره كان وهو ينصرف إلى حياته يعرف النهاية المحتومة لهذا الغاصب. يشتد هذا الكلام فى السر والعلن هذه الأيام والكفة تميل أكثر ناحية الذين يصفون المصريين بالاستسلام والحقيقة أننا يجب أن نعترف بقوة الدولة المركزية المصرية وأثرها السلبى على المصريين. قديما فى عهد الأسرات الفرعونية كانت الدولة المركزية على رأسها الفرعون الإله وكانت هذه الدولة تتولى

النظام وتوزيع المياه وحماية البلاد ولم تأت برغبة الفرعون بل كانت الطبيعة النهرية وراء هذا النوع من الحكم وقبل الاحتلال الفارسى كان أى غزو لمصر لا يستمر طويلا بل أن الدولة المصرية نفسها وصلت حدودها إلى الشام شمالا والعراق شرقا وظل نمط الحكم كما هو مع كل الغزاة أو المستعمرين أو الفاتحين حتى لا يغضب أحد وتغيرت على مصر حكومات أو دول أو حكام ما أنزل الله بهم من سلطان. ما رأيكم فى كافور الأخشيدى مثلا؟ وصار الصراع كبيرا على تملك مصر بين الحكام والولاة فى كل مكان فى العالم الإسلامى وغير الإسلامى كأنه لا يوجد فيها شعب. فى كل هذه العصور كان المصريون ينصرفون إلى الحياة لا يعوقهم شىء عن الزراعة أو الصناعة أو الدين أو الفن. لم تكن مهمة الدولة المركزية صعبة مع الشعب المصرى ولم يكن الشعب عبئا كبيرًا وكان اقتصاد مصر يكفى شعبها وزيادة فكانت أكبر عملية نهب لثروات البلاد ورغم ذلك ظلت فى البلاد ثروة. وفى حالات ضعف الدولة المركزية خاصة فى العصر المملوكى جرت مجاعات وأوبئة لكن فى النهاية خرجت مصر سالمة. كل حكومة أو دولة أو ولاية كانت ترى أنها التى تدير شأن البلاد والشعب يعمل فى الحقول أو غيرها حتى العصر الحديث مع محمد على باشا الذى جعل الدولة تحتكر كل شىء وكان مميزا إذ دفع بالمصريين إلى الحياة وإن ظل الحكم للأتراك والجراكسة أرسل محمد على البعثات إلى أوروبا والتى كانت بعد عودتها أساس النهضة فى كل شىء. وألف لأول مرة منذ الغزو الفارسى جيشا من المصريين أرعب أوروبا فتحالفت ضده حتى وقّع اتفاقية لندن عام ١٨٤٨ التى حددت الجيش المصرى بثمانية عشر ألف جندى فقط ولكن الدولة المركزية استمرت وإن كانت مختلفة الآن باختلاف الحكام فهنا حكام يريدون لمصر أن تأخذ مكانة ممتازة فى العالم حتى أن إسماعيل باشا أرادها قطعة من أوروبا وما دمنا فى أوروبا ومادامت هناك

بعثات رأت الحياة الديمقراطية هناك فلابد من الديمقراطية حتى تحت الاحتلال البريطانى، كانت هذه الديمقراطية وبالذات بعد ثورة ١٩١٩ أكبر معين للكفاح ضد الاستعمار الإنجليزى، ولم يستطع الإنجليز الإجهاز عليها فى كل وقت حتى جاءت ثورة يوليو وعادت الدولة المركزية أقوى من جديد. شىء أقرب إلى عصر محمد على. نهضة صناعية وتعليمية وثقافية وغيرها لكن بلا ديمقراطية وكما حدث مع محمد على عام ١٨٤٨ حدث مع عبدالناصر عام ١٩٦٧ لكن ظلت الدولة المركزية قوية للخروج من الهزيمة وبدون شعار لا صوت يعلو على صوت المعركة لم يكن أحد يريد إلا المعركة والنصر وفى عصر السادات لم يفكك الدولة المركزية فهو ينشئ الأحزاب ويقول أنه رب العائلة بل شجع التيار الرجعى الذى يريد البيعة والخلافة. المشكلة إن الحياة فى مصر تتغير فلم تعد الزراعة هى النشاط الأكبر ولم يعد العالم بعيدا عن أى مواطن وعرف المواطن أنه لا نجاة لأى أمة إلا بالديمقراطية وبالحكم المدنى. وباطلاق طاقات المجتمع المدنى فأكبر دولة مركزية فى القرن العشرين وهى الاتحاد السوفيتى تفككت. فى الفترة الليبرالية المصرية ١٩١٩ - ١٩٥٢ قفزت مصر قفزات رائعة فى الحريات المدنية وغيرها فهل للدولة المركزية مستقبل الآن؟ لا للأسباب السابقة. إذن إلى أين سيصل بنا الحال مع دولة تتحكم فى كل شىء حتى أصوات الناخبين للأسف؟ ليس أمامنا إلا الفوضى لأن العصر ليس عصر الدولة المركزية لا فى العالم ولا فى مصر التى تقريبا انصرف شعبها كما هو معتاد عن حكومته لكن ليقع فريسة أفكار انتهازية ورجعية تأخذ شكل الدين وهى بعيدة عنه كل البعد ووراء الكثير من الخراب وأوله الانصراف عن نهضة هذا الوطن فهل يسمع أحد؟

أكتوبر73 – الصور الغائبة.

كنت قادما من الاسكندريه لأسجل قصة قصيرة فى البرنامج الثانى، الثقافى الآن فى الإذاعة المصرية.كنا نتقاضى فى القصة عشرة جنيهات وكانت تكفى لشراء بدلة من الصوف الهيلد الانجليزى ويفيض. كانت الرحلة بسيطة .مبيت عند احد الاصدقاء فى اليوم السابق ثم تسجيل القصة فى صباح اليوم الثانى ثم الذهاب الى مقهى ريش للجلوس بين من يتواجد من الكتاب المشاهير من جيل الستينات ثم العودة الى الأسكندريه .فى الليلة السابقه كنت ضيفا على صديق لى من الاسكندريه أصلا لكنه يعمل ويعيش فى حلوان، ولا تسألنى كيف كانت حلوان وقتها . تسألنى؟ . اذن خذ الاجابة، كانت جنة الله على الأرض .وكعادتى حتى الان لا انام الا متاخرا ظللت يقظا اقرا فى كتاب معى . اتذكر انه كان كتابا عن الادب الاميركى لا اذكر للاسف عنوانه . وفى منتصف الليل خرجت الى البلكونة استنشق هواء حلوان وفجأة سمعت ضجيجا حتى فى الشارع ونظرت فوجدت عربات عسكريه فوقها جنود وعربات تحمل مدافع صغيرة فاندهشت ثم مرت بعض الدبابات فاندهشت أكثر وظللت على دهشتى حتى اختفى المشهد أو انتهى وابتعد الصوت فوجدت نفسى أقول هل هى الحرب ؟ وفكرت أوقظ صديقى اسأله لكنى اشفقت عليه ونمت لاستيقظ حوالى العاشرة فلا أجده هو الذى يذهب الى عمله مبكرا كعادة كل العاملين فى المصانع والشركات .تركت البيت لاستقل المترو الى باب

اللوق ومن هناك إلى مبنى الاذاعة والتليفزيون .فى إذاعة البرنامج الثانى سجلت قصتى وجلست قليلا مع الكاتب والمترجم كمال ممدوح حمدي وفجاة حدث هرج كبير فى الطرقات . ناس تجرى وتهتف الله اكبر الله اكبر الجيش يعبر قناة السويس . الحرب قامت . لا أذكر ما جرى بعد ذلك إذ بدا الجميع مشغولين فتركت المكان إلى مقهى ريش وهناك وجدت المرحوم نجيب سرور وسليمان فياض أمد الله فى عمره وبعد قليل انضم أمل دنقل رحمه الله . يالهى اين ذهب الأحبه !وكان الحديث كله فرح وسعادة واتذكر حتى الآن واتخيل سليمان فياض وهو يحلل الشخصيه الاسرائيليه وكيف سينتصر الجيش المصرى أما نجيب سرور فحدث ولا حرج عن الالفاظ الجنسيه التى وصف بها اسرائيل وما سيفعله الجيش المصرى فيهم . لم تكن هناك أى اخبار بعد عن اتمام العبور ولا عن الأسرى الذين امتلات بصورهم الصحف فى اليوم التالى لكن السعادة كانت فوق الجميع. هؤلاء الذين كانوا من أكبر معارضى السادات لتأخر الحرب. كنا فى رمضان وشارع طلعت حرب أمامنا والقهوة مفتوحة ليست مسيجة بالجدران كما هى الان ونجيب سرور لم يفته أبدا أن يعلق على جمال النساء والفتيات العابرات امامنا . هذه التعليقات التى لم يكف عنها ابدا بعد ذلك. بعد ان استقر بى الحال فى القاهرة فى العام التالى ورافقته كثيرا حتى مات يرحمه الله ولم تكن التعليقات على النساء أبداً نابية. كلنت مابين فرسة ومهرة وغزالة وليس أكثر . عرفنا انه فى المساء سيجتمع المرحوم يوسف السباعى بالادباء فى دار الأدباء بشارع القصر العينى ومن ثم وجدت أنه من الأفضل أن أظل فى مقهى ريش حتى السابعة موعد الاجتماع . فى المقهى أعرف أخبار الحرب . فى اجتماع الأدباء مع يوسف السباعى حدثت مناقشات حامية لأن عددا من الأدباء كانوا على خلاف معه ولا أذكر تفاصيل الكلام الآن لكن الخلاف كان على صيغة بيان التأييد الذى

يريده السباعى للسادات . كان هناك من يرفض ذلك أصلا . الاجتماع انتهى بالموافقة على إرسال بيان التأييد للرئيس السادات ولا أذكر تفاصيله الان . وفى هذا الاجتماع قابلت كمال ممدوح حمدى مرة أخرى فأصر على اصطحابى معه الى البيت وكثيرا ما فعل ذلك من قبل وفى بيته فى حجرة مكتبه فعل شيئا غريبا لم أره من قبل ولا من بعد . كان هناك جهاز تسجيل كبير فيه راديو فأخذ يحرك مفاتيح الجهاز حتى صرنا نسمع الجبهة وما يدور فيها من قتال .اى والله .طبعا الأمر لم يكن واضحا لكن هذا ما حدث .بل استمعنا الى بعض اصوات الجنود او الضباط.

متأكد إنه لن يصدقنى أحد لكن الذين يعرفون كمال ممدوح حمدى يعرفون مهاراته العجيبة فى الكهربا والميكانيكا هو المتخصص فى الأدب اليونانى .تركنى كمال عند الفجر لأنام. فى صباح اليوم التالى أخذت طريقى الى الأسكندريه . كنت لا زلت أعمل فى الترسانه البحريه وكان لى نشاط سياسى لابد أن يظهر الآن فى شكل جماعات الدفاع المدنى على الأقل .والى شباب هذه الأيام فان السعادة التى كانت تمشى معنا بالليل والنهار كانت ملئ السماء والأرض وصور الأسرى الاسرائيليين كانت فرحة مصر كلها وأخبار الطائرات الاسرائيلية التى تقع ومشاهد استسلام الجنود الاسرائيليين . إنه المجد الحقيقى حين يتجسد على الأرض حتى حين بدأت الثغرة وخطب السادات قائلا انها عمليه سينمائية مثل عملية خليج الأردين فى الحرب بين المانيا وفرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية صدقناه وبالليل أذاع التليفزيون المصرى فيلما عن هذه المعركة . معركة الأردين .ولم يكن الفيلم يشير الى إنها عمليه سينمائيه! . كانت حربا حقيقية بين الجيش الالمانى والفرنسى لكننا صدقنا السادات .اسوأ ماجرى بعد ذلك هو أن السياسة أخذتنا بعيدا عن أمجاد هذه الحرب وهاهو أخيرا مؤرخ اسرائيلى يقول أننا فعلا هزمنا اسرائيل وأن الثغرة كانت.

تمثيلية بالضبط كما قال السادات وفى كل عام للأسف الشديد يدور كلام كثير عن عظمة الحرب لكن لا تنشر أبدا صور المعركة التى حررت كل المصريين من اليأس ولا اعرف لماذا لا يوجد حتى الآن أكثر من كتاب يوثق المعارك العظيمه بالصور .

جلابية وطرحة..

ليس هناك عيب ، لا فى الجلابية ولا فى الطرحة . كل منهما كانت ملابس أهلنا فى الريف ولا تزال . هذا تراث جميل لا يخجل منه أحد . لكنه تراث مرتبط بالمكان والمناخ والعمل . وحين كانت الزراعة هى العمل الوحيد كان هذا هو الزى الوحيد خاصة وأن بلادنا حارة فى معظم العام . كان الرجال أيضا يرتدون الجلابيب يخرجون بها الى الحقول وما أن يصلوا حتى يخلعوها ليعملو بالملابس الداخلية الطويلة التى تمتص العرق ولا تتلوث كما يمكن أن يتلوث الجلباب الذى هو عادة من نسيج أغلى . في البيت يرتدى الفلاح أيضا الجلباب الخفيف أو يتخفف من ملابسه حسب الجو والحالة المادية كما يرتدى الجلابية الفاخرة من الصوف فى المناسبات أو السهرات، ألبنش، وهى بالمناسبة كلمة تركية . أصحاب الحرف كانوا لا يفعلون ذلك. كانت لهم ملابسهم التى تتناسب مع حرفهم . لم يكن مناسبا مثلا لمقلّم النخيل أو حفار القنوات أو البناء أن يرتدى الجلباب .فضلا عن الصيادين والنجارين والحدادين وكثير من أهل الحرف فيمابعد. ألزى مرتبط بالعمل ونوعه كما هو مرتبط بالمناخ، ويتغير كما تتغير الأعمال والأزمنة. كذلك يمكن اكتساب أشكال أخرى منه كما اكتسب المصريون الطربوش التركى والبدلة الأوربية وكما يكتسبون الان الملابس الكاجوال على الأقل بالنسبة للشباب، لكن هذا الاكتساب كله مرهون بالمظهر والفائدة الدنيوية فى مواجهة العمل أو الطبيعة أو الحياة الاجتماعية ، ففى العمل لا يجب أن

يسبب الزى مشكلة فليس معقولا أن يقف العامل أمام الخرطة مثلا بالجلباب . ستسحبه الخرطة وتأكله فى لحظة غفلة. وليس معقولا أن يصعد الكهربائى أعمدة الانارة بالجلباب وليس معقولا أن يرتدى الجلباب جندى على الجبهة أو طيار أو غطاس كما أنه ليس معقولا أن يرتدى الرجل أو المرأة بالطو فى الصيف أو يرتدى ملابس خفيفة فى الشتاء . أقول هذا الكلام لأوضح الفكرة البسيطة جدا التى لا تحتاج الى إيضاح أو برهان والتى عرفها الناس. كل الناس، بالفطرة منذ أن كانوا عراة ووضعوا أوراق الشجر ليخفوا عوراتهم ثم لفحهم الحر فارتدوا الملبس الخفيف أو لسعهم البرد فارتدوا الوبر . وبينما هم يبحثون عما يقيهم حر الصيف وبرد الشتاء اكتشفوا صناعة النسيج واكتشفوا النباتات التى يستخدمونها قطنا أو حريرا أو صوفا أو كتان ، وبعد ذلك كله أدركوا أن الزى ليس للعمل أو وقاية من المناخ فقط ولكن للمناسبات فبحثوا عن الأناقة وتفننوا فيها .من المؤكد أن أى شخص سيهرب من محل الملابس إذا اكتشف أن باعته يرتدون ملابس رثة ومن أى بائع رث الثياب . ثم صار الزى بعد ذلك مدخلا للقبول الاجتماعى ومدخلا للعلاقات العاطفية فى البيوت وخارجها وفى كل الأحوال ظل الزى مناسبا للعمل والمناخ .نسينا هذا كله للأسف واكتشفنا فجأة أن الزى مظهر دينى رغم أننا وغيرنا نعرف أن ذلك صحيح بالنسبة لرجال الدين فقط لأن هذا عملهم الوحيد ثم أن لهم احتراما خاصا لذلك لابد أن يتميزوا بزيهم عن غيرهم بالزى كمظهر أول. وهم حين يفعلون ذلك حافظوا دائما على علاقة الزى بالمناخ فلم تكن ملابسهم فى الشتاء خفيفة ولا فى الصيف ثقيلة وفى كل الأحوال يتميز زيهم بالوقار المناسب لرجل دين فضلا عما فى الزى من رموز للديانة نفسها فى كثير من الأحوال . وهنا أيضا تظهر علاقة الزى بالعمل . نسينا هذا كله رغم أننا مارسناه على طول التاريخ . ألحقنا الزى بالدين ثم اعتبرنا

أن مايلبسه أهل الجزيرة العربية هو الزى الاسلامى رغم أنه زى المناخ الحار الصحراوى الذى توارثته القبائل منذ قبل الاسلام، وزدنا على ذلك فاعتبرنا الزى الأفغانى هو زى الاسلام أيضا رغم أنه موجود هناك قبل أن يصل الاسلام الى بلادهم وهو أيضا زى خاص بالقبائل الأفغانية والطبيعة الأفغانية ثم زدنا على ذلك واعتبرنا الزى الفارسى هو زى الاسلام رغم انه ينطبق عليه ما انطبق على بقية الأزياء . لن ازيد على هذا وأتحدث عن تطور الازياء مع تطور المجتمعات ولا عن السمة العالمية لهذا التطور التى تجعل بيوت الازياء تتبارى فى الموديلات التى لها عنوان واحد فقط هو الاناقة والمناخ، أزياء للشتاء والربيع والصيف والخريف ثم بعد ذلك تدخل العوامل الأخرى التى أشرنا اليها سابقا .هل كنا فى حاجة الى هذا الحديث ؟ هى أشياء بدهية لكن للأسف نضطر الى اعادتها فى بلد أصيب بهوس ارجاع كل شيئ الى الدين وكأن الناس قبل ظهور الاسلام كانوا عراة .والله المستعان .



إسدال

الإسدال هو اسم ظهر فى مصر حديثاً لجلباب ترتديه المرأة فلا يظهر منها غير وجهها، قيل لى إنه إيرانى الأصل، وبصرف النظر عن أصله أو حتى شكله، فاسمه هو الذى أثارنى، وجعلنى أتذكر كلمة النهاية بالإنجليزية، فعندما رأيته أول مرة على إحدى السيدات القريبات ضحكت وقلت «إسدال» يعنى «ذا إند» بالإنجليزية، فقد تذكرت كلمة النهاية التى تنزل على الشاشة بعد انتهاء الفيلم أو كلمة «ستار» التى نقرأها فى آخر المسرحية، وتحسرت على الجلابية المصرية الفلاحى الجميلة جداً والتى لا تحمل معنى النهاية، إسدال يعنى أن هذا الكائن الذى أمامك لا سبيل إليه ولو بالكلام لأنه انتهى واختفى.

تذكرت هذا المعنى، وهذا الزى، مع الأحداث الكبيرة جداً التى تجرى فى بلادنا الآن فى مجلس الشعب أو فى صورة بلاغات أو مقالات على شبكة الإنترنت أو غيرها ضد وزير الثقافة، هذه «القومة المصرية» ضد الوزير لأنه قال رأياً فى الحجاب وفى بعض المشايخ الذين هم ليسوا مشايخ ولايحزنون، الذين يملأون بعض المساجد بكلام وفتاوى وآراء فيها من الجهل أكثر مما فيها من الحكمة، أو المؤذنون الذين يرفعون الأذان فى الميكروفون بأصوات لا تليق بالآذان، أجل، . ما يحدث الآن هو «إسدال» على الرأى وإسدال على الحرية وإسدال مبكر جداً على أى «نَفَس» يخرج من الإنسان يفكر فيه لحظة فى شىء من التقدم. الإخوان يتصورون أنها فرصة لتحقيق انتصار سياسى على

الحكومة. فالشعب بعد أكثر من ربع قرن من حشو مخه بالأفكار الرجعية وبكثير جدا جدا من الخزعبلات المرعبة التى تصب فى خانة «هجر الدنيا» مستعد الآن للهجوم معهم. هكذا يتصورون والحكومة وحزبها بدورهما سيبدوان أضعف من الوقوف أمام من يرفع راية الجهاد دفاعاً عن الدين. بصرف النظر عن أن الوزير لم يتكلم فى الدين. ولقد أظهرت الحكومة وحزبها أنها فعلاً أضعف. فذهبت إلى الإخوان فى معركة ليست حقيقية. أى أثبتت الحكومة وحزبها أنهما لا ميزان بين الحق والباطل علنا وعلى الشاشات مع أنهما دائما يقولان أنهما يفهمان وغيرهما لا يفهم..

إسدال. ذا إند. النهاية. الجميع يتسابقون إلى كسب رجل الشارع الذى تم حشو مخه بالفهم المغلوط للدين لأكثر من ربع قرن. ولم يكتف الجميع بالكلام. بل بدأالبعض بدفع المظاهرات فى جامعة الأزهر. ولو سألت أى شخص من الذين خرجوا فى المظاهرات هل قرأت تصريحات الوزير. ستجد أنه لم يقرأها لأنه لا طالب ولا طالبة معه جنيه ثمن جريدة «المصرى اليوم» التى نشر فيها كلام الوزير. ولا بد أن الذى دفعهم للمظاهرات قال لهم إن الوزير اعتدى على الدين كما يحدث فى كل مرة تتم فيها إثارة طلاب الأزهر الفقراء..

إسدال. النهاية. وذا إند. فهذه الحادثة أوضحت بجلاء أن فى مصر لا مكان للعقل ومن زمان نرى ذلك. فلا علم ولا عمل. ولا بيع بصدق. ولا أى شىء من أجل الوطن. إنما المهم هو المنفعة الشخصية التى تعود على الشخص مسؤولاً أو غير مسؤول حتى خربت الديار. وخربت عقولهم. وإذا كانت الناس معذورة لأنها تعيش فى ضنك يجعلها تستقبل الأفكار الرجعية باعتبارها طوق النجاة من الدنيا الظالمة فما عذر قادتها الذين يعيشون فى «بحبوحة»!؟تعطيهم الوقت للتفكير والتدبر. الأخوان وجدوها فرصة لإحراج الحكومة.

وحزبها، والحكومة الضعيفة وحزبها الأضعف وجداها فرصة لمغازلة الجماهير المسكينة، والنهاية هى الإسدال على تاريخ هذه الأمة، التى كان أعظم فترات تاريخها هو النضال ضد حجاب المرأة، وضد الاستعمار، ومن أجل الديمقراطية، ومن أجل مجتمع مدنى حقيقى، ونهضة فى الصناعة والزراعة والفنون والآداب، ولقد نجحت الأمة فى تحقيق ذلك كله منذ عصر إسماعيل فى القرن التاسع عشر، ثم انطلقت فيه بقوة بعد ثورة ١٩١٩، وصارت مصر قطعة من أوروبا، وكان الطريق مفتوحاً للقضاء على الفقر والأمية وغيرهما، لكن النهضة على الإجمال كانت فى أجمل حالاتها، لكن يبدو أن الذين فعلوا ذلك «دخلوا النار» لأن ما يحدث الآن هو عودة إلى ما قبل ذلك، إلى مجتمع مغلق، تتحجب فيه النساء، ويهجر فيه الرجال العلم والصناعة، والفن والثقافة، وليتها عودة إلى عصور مملوكية أو عثمانية أو أى شىء ماجرى على أرض مصر ولكنها عودة إلى الصحراء، إلى البداوة التى لم تعرفها مصر أبداً، وهى نهاية تليق بما جرى على أرض مصر منذ ثلاثين سنة من فساد وإفساد من ناحية ومن حث الناس على هجر الدنيا من ناحية، فلنتهيأ جميعا لركوب الجمال!.

السبت فات والحد فات

أغنية غريبة للمطرب الراحل صاحب الصوت القوى العميق محمد عبدالمطلب تقول كلماتها السبت فات والحد فات وبعد بكرة يوم التلات ميعاد حبيبى. ومادام «الحد فات» فهو إذن يغنى يوم الاثنين فكيف يكون «التلات» بعد بكرة. لابد أنه «بكرة»، ولكن الحل المنطقى لهذه المغالطة أنه يغنى «الحد» بالليل! هذا هو الحل الوحيد لهذا الخطأ فى الحساب.وهو حل مؤقت لإنه فى هذه الحالة لا يكون الحد فات! طيب ما علاقة هذه الأغنية بما أريد أن أقوله الآن، أريد أن أتحدث عن حال هذا الوطن، حكومة ومعارضة. ومن ثم يخيل إلى أن حالنا جميعا من حال هذه الأغنية فالمعارضة تتحدث دائما عن أزمات البلاد باعتبارها منذرة بانقلاب عنيف أو ثورة عارمة على الأوضاع والدنيا مفتوحة لمقالات نارية عنيفة عن الانهيار الذى نراه على كل الجبهات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإعلامية بشكل لم يسبق منذ قيام ثورة يوليو، والمتأمل لهذه الانهيارات يجدها كذلك فعلا منذرة ومخيفة، لكن لاشىء يحدث، الحكومة على الجانب الآخر مطمئنة جدا جدا، لا تستجيب ولا تهتم وتمضى فى خططها ومخططها الذى يثبت فشله يوما بعد يوم، فلا الأزمات الاقتصادية تنفرج ولا تقدم على أى جهة يوحى بالأمل إلا فيما ندر.والسبت يمضى والأحد يمضى ولا ينقطع غناء المعارضة عن يوم الثلاثاء الذى لا يأتى أبدا ولا الحبيب الغائب، الثورة أو الغضب العام، عاد وظهر: من أين يأتى اطمئنان الحكومة، ليس

من القوة الأمنية الجبارة بالقطع، لأن هذه القوة لم تمنع أحدا من فعل شيء. ففى بنى مزار تم اقتحام ثلاثة منازل وقتل وأصيب. وفى الإسكندرية تم اقتحام ثلاث كنائس وقتل وإصابة بعض روادها. تلك جريمة تمت بالليل وهذه جريمة تمت بالنهار والقاسم المشترك بينهما هو رقم ثلاثة وأضافت الدولة قاسما مشتركا آخر هو أن مرتكب الحادثين مجنون. وغير ذلك حدث وسيحدث ولاشيء يتحرك، بل على العكس ستتعب المعارضة، التى أصاب صدع كبير حزبين كبيرين منها، حزب الغد وحزب الوفد، وحزب الغد كان فى البداية صدعا فى حزب الوفد أما حزب التجمع فهو مصدوع من زمان وكذلك الحزب الناصرى، اليسار عموما، وبقية الأحزاب لا معنى لها أكثر من كونها عدة صحف تسعى للإعلانات. فى حيرة شديدة أنا من طول المدة بين «الحد» والتلات ولا أريد أن أسقط فى التشاؤم التاريخى عن طول صبر الشعب المصرى، ولا تأمل تاريخه وكيف أن مصر هى أطول مستعمرة فى التاريخ، فمنذ عام ٥٣٢ قبل الميلاد لم تعرف الاستقلال إلا مع ثورة يوليو، وانتهى هذا الاستقلال لما نحن فيه الآن. ويذكر المقريزى والجبرتى كيف شيع أهالى القاهرة القائد طومان باى بالزغاريد والدعوات وهو خارج يقابل الجيش العثمانى ثم كيف استقبل سكان القاهرة الجيش العثمانى بالزغاريد وهو يحتل البلاد ويشنق طومان باى. لا أريد أن أسقط فى التشاؤم التاريخى وأقول إن المصريين من زمان لا علاقة لهم بالحكم وبمن يحكم بلادهم، حتى أنه اختار أعيانهم محمد على الألبانى حاكما بعد خروج الفرنسيين بدلا من أن يختاروا واحدا منهم. هذه كلها أمور حكمتها ظروف كل مرحلة. الآن نحن فى أفق مفتوح والإعلام العربى والغربى ينقل إلينا ما يحدث من ثورات ومطالبات بالديمقراطية فى كل أنحاء العالم، ولا يبدو له تأثير إلا فى النخبة، التى هى ليست فى حاجة إلى ذلك فهى تعرفه. إذن السبيل الوحيد هو الاتفاق الوطنى بين الحكومة

والمعارضة. ولكن هذا الاتفاق ثبت فشله من قبل وفى كل مرة يتم فيها اللقاء بين الإثنين تكتشف المعارضة أن الحكومة تلعب بها كما حدث فى المناقشات التى سبقت الاستفتاء على تعديل المادة «٧٦» لانتخاب رئيس الجمهورية. وتدرك الحكومة أن المعارضة لا مكان لها فى الشارع إنما هى نخبة مثقفة يمكن شراء بعضها بمناصب شرفية أو غير شرفية. والمعارضة الحقيقية نخشاها جميعا. أقصد التيار السلفى. جماعة الإخوان وما تعلق فى هوامشها من جماعات إرهابية. وجماعة الإخوان مسؤولة بشكل أو بآخر عن هذا السكون والجمود فى الشارع فلقد نشطت جدا بين فقراء الشعب. أغلبيته. وأقنعته أن الآخرة خير وأبقى لذلك خرج من الصراع السياسى. والحكومة التى مدت الحبل على الغارب للإخوان منذ الرئيس المؤمن أنور السادات نجحت تماما فى الوصول بالمجتمع إلى هذا الجمود. وهى تعرف كيف تواجه الإخوان وغيرهم إذا زادت أحلامهم. وهنا تنضم إليها المعارضة الأخرى خوفا على المستقبل. والمستقبل لا يأتى ولا تظهر تباشيره رغم أن السبت فات والحد فات ولا يحتاج أى مجتمع إلى أكثر مما هو حادث ليتحرك ولا تحتاج حكومة إلى أكثر مما هو جار لتتعظ ويرحم الله محمد عبدالمطلب الذى أخطأ فى الحساب.

رسالة حدائق الشيطان إلي الله!

قبل ثلاث حلقات أو أربع، وقف «دياب» عضو مجلس الشعب الحائز الذى أدى دوره بامتياز رياض الخولى، يقول لزميله عضو مجلس الشعب أيضاً: إنه احتار بين الحكومة والشعب. الشعب لا يتحرك معه، والحكومة تحيله إلى «مندور أبوالدهب» ليحقق مشروعاته للناس. بعد ذلك بدأ الصداع يداهم الطاغية مندور أبوالدهب، ويسقط أكثر من مرة، ولأنى تابعت المسلسل تقريباً كله، كنت أتصور أن الأخطاء والخطايا التى يقترفها مندور لأكثر من عشرين حلقة، سوف تبدأ فى الالتفاف على عنقه فى الحلقات الأخيرة، وتحكم الحصار حوله ليلقى النهاية التى تليق بكل مفتر جبار.

لكن هاجساً أسر لى أن شيئاً آخر سيفعله المؤلف، هو أن يسقط مندور أبوالدهب ميتاً فجأة، خاصة أن الحلقات تقترب من الثلاثين، ولم تعد كافية لارتفاع التوتر الدرامى، وفكرت تفكيراً شيطانياً، أن دواعى إنتاجية ستدفع المؤلف إلى إنهاء العمل، لقد طالت جداً أفعال مندور بالناس وتأخرت كثيراً ردود الفعل، أو كانت تحدث على استحياء، لقوة مندور وبطشه لا لضعف التأليف. لكن هذا الهاجس سرعان ما انتهى أمام التفكير فى حالة المصريين حقاً، وكيف أنهم شعب بطىء الاستجابة للتغيير والثورة، على طول تاريخهم، وبالطبع لن تطول حلقات المسلسل إلى الدرجة التى تقنع فيها المشاهد بصبر المصريين. لقد جاء هذا الكلام فى جمل دالة قالها دياب مرة وصديقه عضو مجلس الشعب مرة أخرى، وبدا أن هناك

حالة يأس، كادت تتسرب إلى الشباب المحيطين بدياب أيضاً، لكن الذى حدث أن مندور أبوالدهب بعد ظهور المرض الخبيث فى رأسه، قام بحرق حدائق الشيطان وتوزيع ثروته على أصحابها والتسليم لدياب، وهى نهاية قديمة، كثيراً ما قدمتها السينما المصرية فى أفلام لحسن الإمام وغيره، وكثيراً ما هاجمها النقاد باعتبارها نهاية ميتافيزيقية وميلودرامية وتبعث على التواكل وانتظار الحل من السماء، وغير ذلك كثير مما يصب فى خانة عدم الصدق الفنى عند كثير من النقاد. إلا أننى لم أندهش من هذه النهاية، ولا أستطيع أن اعتبرها كما اعتبرها النقاد قديماً، فتاريخ المؤلف يؤكد أنه من كتاب الدراما الكبار، ولا يمكن أن يسقط فى هذا الفخ، وتاريخ المخرج يؤكد هذا أيضاً، فما الذى جعل المؤلف أو المؤلف والمخرج معاً يلجآن إلى هذه النهاية. ليس لأن الثورة على الطاغية سبق تقديمها من قبل فى السينما، خاصة فى أفلام مثل «شىء من الخوف» أو «صراع فى الوادى» أو «صراع فى الميناء»... أو غيرها، فليس عيباً تكرار النهايات مادامت متسقة مع روح النص وبنائه الدرامى، وليس أيضاً لأنهما - المؤلف والمخرج - أرادا الاحتفاظ للممثل جمال سليمان بحب الجمهور له، فلا يمكن التضحية بنهاية فنية من قبل مؤلف ومخرج لهما القدرة على فرض رؤيتهما، لسبب بسيط جداً أيضاً، أنه كانت هناك فرصة أن تظل النهاية مفتوحة لا يحسم فيها الصراع لصالح أحد، وهذا كثيراً ما يحدث، بل لعله أكثر صدقاً من غيره.

فى رأيى أن النهاية جاءت من تدبر حالتنا، حالتنا وحال غيرنا، وكما قال عضو مجلس الشعب صديق دياب على لسان أمه: «اللى نبات فيه نصبح فيه»، والمتابع لحالتنا لا يرى تقدماً من المعارضة، ولا من الشعب الذى تراهن عليه، ولا انصياعاً من الحكومة للمعارضة، والحالة مستقرة غاية الاستقرار، حتى بدأ بعض الكتاب يوجهون

شتائمهم للناس أكثر مما يوجهونها للحكومة. لذلك اتجه الكاتب أو الكاتب والمخرج إلى الله فى السماء. لقد بلغ اليأس مبلغه ووصل إلى المؤلفين والمخرجين. وسكت النقاد عن النهاية مقتنعين أو يائسين هم أيضاً. ولا يمكن أن يكون المؤلف والمخرج قد تصورا أن أى جبار مثل مندور أبوالدهب سيشاهد المسلسل. ويمكن أن يخاف ويتعظ. فالذين مثل مندور أبوالدهب لا يخافون المرض. ولا يخافون أى شىء. ولا يتفرجون على الدراما التليفزيونية. هى رسالة إلى الله أساسها يأس شامل. وهى رسالة مقنعة لأن فيها رجاء خفى من الله. وأنا شخصياً مقتنع بها. ومن ثم هى نهاية واقعية. لأنه ليس على الأرض ما يشى بغير ذلك. بل كل ما على الأرض يشى بذلك. أعنى انتظار الفرج من السماء. ولذلك حتى لم ينتبه النقاد إلى نهاية المسلسل. ولم يروا فيها عيباً أو أى نوع من الميلودراما. فانضموا بذلك إلى حزب اليائسين. الذى شمل المؤلف والمخرج من قبل ويشملنى ويشمل غيرى ويريح الجميع..



ثلاث مرايا لفقيد الوطن أحمد عبدالله رزة

المرآة الأولى:

هى مرآة شخصية. فأحمد عبدالله رزة بالنسبة لى، اسم سابح فى الفضاء. لم ألتق به إلا بعد عودته من لندن. ومرات قليلة. وبسرعة. لكنه فى السبعينيات وبعد أن أتيت من الإسكندرية. كان اسم عبدالله رزة يلخص حالة المقاومة اليسارية النبيلة للسياسة الجديدة التى وصلت بنا إلى ما نحن عليه الآن. ولا أعرف ما السبب الذى جعلنى لا ألتق به. الدوخة التى كان فيها الأدباء أيضاً. حيث كانت المجلات المحترمة تغلق تباعاً. والمطاردات على قدم وساق للأقلام الشريفة. والحيرة فى القاهرة. المدينة التى تعد عاصمة الثقافة المنشغلة عن الثقافة بالصراع السياسى.

وأكثر حضور لإسم أحمد عبدالله رزة أمامى كان فى يناير ١٩٨٥. ولم يكن هو موجوداً. وكنا جماعة من المثقفين والكتاب فى عنبر واحد بسجن القناطر بسبب المقاطعة الشديدة التى كنا نقوم بها لحضور إسرائيل إلى المعرض. كانت تلك آخر سنة لحضور إسرائيل. بعدها لم تحضر أبداً. وكانت التهمة الحاضرة للكتاب ذلك الوقت هى الماركسية. بعدها انشغل الأمن بالإرهاب والإخوان. كانت حكايات كمال خليل عن أحمد عبدالله رزة أيضاً مثل خيل سابح فى الفضاء يضىء الليالى المظلمة.

المرآة الثانية:

هى اللقاءات القليلة التى قابلت فيها فقيد الوطن، التى كانت كما قلت بسرعة، كانت دهشتي من هذا الإنسان رقيق الجسم والملامح، الذى يبدو مسافرا دائماً وأعرف عزوفه عن الانتماء لأى مؤسسة رسمية، كان يبدو لى كأنه يفكر كيف تَغيّر العصر، وكيف ذهب زخم الحركة الوطنية، وكأن المكان ليس مكانه، ولا الزمان أيضاً زمانه، وكأنه كان عازماً فى صمت على الرحيل.. إنهم «الغرباء» الكبار يحتجون دون ضجيج، ملتمسين الأعذار لكل من حولهم، ويهيئون أنفسهم للخروج فى صمت، قال لى أحد الأصدقاء: لو أن «أحمد» رأى كم الحب الذى انسكب فى المقالات التى كُتبت عنه بعد وفاته ربما تأخر قليلاً.. قلت أبداً.. هكذا الغرباء الكبار حتى لو عرفوا، فلا يكفى مقالات الأحباء والمثقفين، لكنه الوطن الذى رآه أحمد عبد الله على غير ما تمنى وأراد .هكذا الغرباء أصحاب الأرواح المتجاوزة للحقائق الصغيرة على الأرض.

المرآة الثالثة:

هى الحركة الطلابية كلها، والحركة الوطنية منذ بداية السبعينيات ونهاية الستينيات، الغائبة حتى الآن عن التعليم المصرى والإعلام المصرى، فلا يوجد فى كتب التاريخ شىء اسمه مقاومة المصريين للحاكم المصرى، التاريخ يحتفى بمقاومة الاستعمار رغم مضى أكثر من نصف قرن على حكم المصريين للمصريين، ولا يوجد فى الإعلام مسلسل واحد عن هذه الحركة الشعبية ولا عن أبناء هذه الحركة منذ السبعينيات الذين كان حلمهم دائماً أكبر مما حولهم ومن إمكاناتهم فى بعض الأحيان، ولا يوجد بعيداً عن الإعلام الرسمى من يفكر من أصحاب المحطات الفضائية فى إبراز هذا الجانب الرائع من

نضال المصريين. ولا تستطيع السينما حتى لو انعدل حالها. وهكذا نعيش فى عالم من الفن والدراما بلا روح. مكررة أفكاره ومعادة وغالباً بلهاء. ولذلك نفسح المجال للبلاهة التى تنسكب علينا. أجل. ذلك الجزء النبيل من حياة هذه الأمة ممنوع ممنوع ممنوع. إلا فى الكتب والصحف. لكنه لا يصل إلى المدارس أبداً ولا إلى المشاهد العادى واسع الانتشار. لذلك لا يعرف الناس عن بلادهم إلا هذا الركام من الأكاذيب. ولا يعرف الناس أبطالهم الحقيقيين.

شهداء المسرح

خيرة رجال وشباب المسرح فى مصر احترقوا . ماتوا خنقا وحرقا فى قاعة بدائية فى قصر ثقافة بنى سويف . لم ينقذهم أحد ولم يسمع صرخاتهم أحد ولم ير النيران أحد ولم يصل لانقاذهم أحد ولم يصل لعلاجهم أحد ...فى اى بلد نعيش ؟ فى بلد يتهاوى يوما بعد يوم . ساعة بعد ساعة . لحظة بعد لحظة . مهرجان للمسرح لا يتم الانتباه الى أنه سيعرض عروضا ويحضرها جمهور ويشاهدها نقاد فدائيون يجرون وراء هذه العروض الصغيرة فى كل مكان فى مصر من اجل تقدم مصر ونهضة مصر ورفع راية الفن فى وطن تشبَّع بالافكار الرجعية ضد الفن وضد الادب وضد الفنانين وضد الادباء فى لحظةُ من الزمن امتد عمرها لأكثر من ربع قرن الآن .حدث الموت فى الثقافة الجماهيرية ، وكان لابد أن يحدث فى الثقافة الجماهيرية دون غيرها من المؤسسات الثقافية ، فلقد ترهلت هذه المؤسسة خلال ربع القرن الذى مضى . بالتحديد منذ بداية السبعينيات ، وتمت فيها مطاردة المفكرين المستنيرين والفنانين الجادين ونمت فيها وترعرعت الأفكار الرجعية حتى أن النشاط الفنىَ صار يتم فيها بالعافية والغالب بالروتين فهو بند فى الميزانية يجب الانتهاء منه .وسيطر على مراكزها وقصورها فى الأغلب ، وباستثناءات قليلة، موظفون لا يحبون هذه الفنون لكنهم بارعون فى تسوية أوراقهم أمام الجهات الادارية، مع مركز أو رأس ادارى مشغول بالصحافة وبالأعمال التى تضعه فى اهتمام الصحافة الكاذب حتى صارت الأبنية الثقافية

خواء تتحرك فى المناسبات فقط ويعود الجميع من المناسبة سعداء لقد قاموا بالواجب .!!

مات ثلاثون من خيرة كتاب ونقاد ومخرجى وممثلى المسرح الشباب والكبار فى وطن مشغول بالانتخابات الرئاسية والتصويت المعروف سلفا فلم تتوقف حتى الصحافة الفنية عند الحادث الجلل لكنها اهتمت برأى النجوم فى الانتخابات .التصويت الحقيقى كان يجب أن يكون على مسرحنا وحالنا الفنى وعلى شهدائنا الذين يدمى قلبى من أجلهم . أصدقائى واحبائى الذين رأيت كيف زهدوا فى كل شيئ من أجل الفن .

الناقد الكبير أحمد عبد الحميد الذى وهب حياته لهذه الفنون فى أبعد الأماكن قبل أقربها . حازم شحاتة الدقيق المحقق الفنى البارع والناقد الحصيف الذى أعاد لنا أعمال ميخائيل رومان فى أبدع تحقيق . محسن مصيلحى الاستاذ المترجم المكافح . نزار سمك المناضل الجميل البيوريتانى الذى خذلته الحياة من حوله فى كل شيئ وظل يحتفظ بابتسامته لنا لا يصدر الينا الحزن أبدا ولا الألم وظل مخلصا لعمله فى الثقافة الجماهيرية حتى أن عددا من أصدقائه طلب منه العدول عن الذهاب والبقاء لمتابعة المعركة الانتخابية لكنه آثر الحرص على عمله فضاع منا وضاع علينا وفقدنا بفقده حالة فكرية وانسانية قل وجودها . الأسماء كثيرة والكارثة لا يستهان بها تعكس حالتنا على الاجمال .

أنا لا اعرف ماذا يمكن أن نفعل بعد هذا الحادث . حالتى النفسية مشتتة . وحالتى الفكرية مبعثرة . وكل ما أراه هو اصدقائى وهم يكافحون النيران فى مكان مغلق .لم يأخذوا حتى فرصة الجرى الطبيعى الذى يحدث مع من يحترق. كأنهم وقود وضع بعناية فى

فرن . شيئ اشبه بأفران الغاز. إهمال مؤكد لكن شبهة العمد قائمة . سلطات التحقيق هى التى ستقول وقبل أن ننشغل بالتأبين واخراج الكتب والتعزية لابد أن يجيب أحد عن السؤال كيف حقا احترق بهذه السهولة هذا العدد؟ التحقيق لابد أن يمتد ليشمل حال هذا الجهاز الثقافى . حال قصور الثقافة وبيوت الثقافة . حال الموظفين الذين يسعون للقمة العيش والستر قبل العمل الثقافى . حال المسؤولين الذين لم ينتبهوا الى تأمين المكان . كيف حقا يعملون على هذا النحو ؟ هذا الجهاز كله هل له معنى الان ؟ما فلسفته وما دواعى وجوده ؟أما التأبين فهو سهل والاحتفال بالموتى أسهل . أريد شخصا عاقلا فى هذا البلد يقول لى كيف نمنع الموت العشوائى الذى صار يطاردنا ؟ أين نذهب فى هذا الوطن ؟

العروس التي زفت نفسها إلي الموت

لخمسة أيام و أنا أفكر أن أكتب هذا المقال و كلما جلست إلى مكتبى لا أكتب شيئاً . ذلك الحزن الذى يتمدد فى صدرى منذ نبأ موت سعاد حسنى لابد أن يخرج . لكنى كلما جلست أكتب إستعصى علىّ خروجه . وإزداد ثقلاً و تمدداً . إزددت حزناً .. إن صورتها و هى تسقط فى الفضاء ثم و هى ترتطم بالأرض لا تفارقنى .. أربكتنى . مشيت صامتاً و جلست صامتاً و توترت أعصابى تكاد تمزقنى و أنا جالس . صار العالم علىّ رداء من حديد . ثقيل باهظ سخيف .

فى صباح الثلاثاء . فى الساعة الثامنة و النصف جلست أكتب . تركت الراديو كعادتى على محطة البرنامج الموسيقى . و فجأة إنسابت منه مقطوعة (البوليرو) لرافاييل . فتحرك القلم فى يدى . المقطوعة - الجميلة - القصيرة جداً أشبه بمرثية . نشيد وداع حزين . ينزل إلينا من فوق تل أو جبل . و كلما تكررت و ازداد إرتفاع نغماتها ازداد إحساسى بالفقد . و فى خلفية اللحن . يبدو الإيقاع المتواتر . أشبه بمارش عسكرى جنائزى حقيقى .

البوليرو أشبه بزفة عروس (إلى الموت) . كما هى أقرب إلى مسيرة الجنود إلى حتفها .

سعاد حسنى كانت عروساً تزف إلى موتها دائماً . لم تغادر سعاد حسنى مرحلة (العروس) فى كل مراحل عمرها . هذه هو الإحساس الدائم الذى كانت تتركه فينا سعاد حسنى مع كل فيلم

حتى فى الأفلام التراجيدية الكبيرة مثل (الزوجة الثانية) و (على من نطلق الرصاص) و (القاهرة ٣٠) كانت سعاد حسنى هى العروس التى لم يكتمل عُرسها . فى كل هذا التنوع من الأفلام . الخفيف و الثقيل . الكوميديا و التراجيديا . السهلة و المركبة . كانت سعاد حسنى هى العروس السعيدة أو التعيسة التى لا نستطيع أن نبتهج و نتركها فى تعاستها . كانت هى البهجة التى نفتقدها . نجدها فى الأ فلام حين نجدها و تضيع منا حين تضيع منها هى . لقد كتب و سيكتب الكثير عن تنوع أفلام سعاد حسنى . و عن قدرتها العجيبة فى كل أنواع الدراما . وعن خروجها بالبطلة. من ثوب فاتن الصامت. ثوب الإنكسار و قلة الحيلة - إلى ثوب القوة و المبادأة. و كما فعلت هى فى (خلّى بالك من زوزو) بقبضة يدها و هى تقول لحسين فهمى (تؤخذ الدنيا كدهه) . كتب الكثير و سيكتب عن غناء سعاد حسنى السهل الجميل . الذى إنتشر بين الناس . إنتشار غناء أشهر المطربات. لكن الذى يُحزننى فى موت سعاد حسنى . فضلاً عن موتها ذاته. هى طريقة الموت . وإختيار هذه الطريقة . هذه الصفعة نحن مسئولون عنها بلا شك . ربما لم يفعل فينا أحد شيئاً مضادا لسعاد حسنى . لكننا نسيناها . رغم عشرات المقالات التى كتبت طوال مرضها . نسيناها تماماً . لأننا تركنا الأقل قيمة يركبون قمة المجتمع . فى الفن و الثقافة و السياسية و كل شيئ . و تحولت فنوننا و ثقافتنا إلى البيزنس و تحقق لأول مرة أفضلية الماضى على الحاضر . رغم أننى لست أبداً من دعاة عبادة الماضى . و لا عبادة الأبطال . لكننى لأول مرة أجد نفسى مُضطراً لقول ذلك . أجل . الماضى الأن أجمل من الحاضر . و هذا هو المؤسف فى بلادنا . لذلك فآلام المرض المضنية جذبت سعاد حسنى إلى زمن عبد الحليم حافظ و صلاح جاهين . و الإثنان بشكل أو بآخر هرباً من الحاضر الذاهب إلى الإنكسار . نفذا بجلديهما .. سعاد حسنى نفذت بجلدها من

مجتمع أصبحت رموزه فى الفن و الثقافة و الإعلام و السياسة كلها تحت أقدام البيزنس . بكل ما يرتبط بهذه الكلمة من معانٍ قذرة . و الذين يجاهدون ضد ذلك مهمشون دائماً. و الهامشيون لمن لا يعرف هم صناع الضمير لأى أمة من الأمم . هم الذين يهاجمون المتن . يفضحونه . يُمزقونه .يجبرونه على التخلى عن كلاسيكياته . و نظامه الصارم . ويفتحون الأبواب للهواء . الهامشيون دائماً هم صُناع الثورات . و سعاد حسنى إكتشفها واحد من أكبر الهامشيين فى تاريخ الثقافة العربية ألا وهو عبد الرحمن الخميسى . و أحبها مُطرب كان كل غنائه موجهاً للهامشيين رغم أنه كان بطل من قلب المتن . هو عبد الحليم حافظ . أما الهامشى الثالث الذى لاشك تتذكره الأن بقوة . حين تتحدث عن إكتئاب سعاد حسنى و إنتحارها . فهو صلاح جاهين . و سعاد مثلهم جميعاً . عاشت فى المتن . فى قلب المتن بروح الهامشيين ؛ لذلك خرجت من الصورة إلى إطارها . حين تلوثت الصورة بإنحطاط البيزنس . ثم تركت الإطار كله و طارت كعصفور غريب حن إلى موطنه الأول . لقد كانت سعاد هى البهجة التى فى وجه العروس . و هى الحزن الذى فى وجه عروس غاب عريسها . هى البهجة الضائعة و التى كنا نجدها فى المعنى الذى تريد أن توصله إلينا. لكن هذه البهجة ما كان لها أن تستمر فى مجتمع يزداد فيه الهامش كل يوم . و يتلوث الهامشيون أيضاً بالإدعاء و الكذب . و يرضون بالصراعات السخيفة . يقعون فريسة سهلة لها . غابت عنا البهجة التى طالت معنا أربعين سنة أو أكثر . إختتمت قرناً بالبهجة . و بدأت قرناً جديداً بالبؤس . بؤس المشاعر . بؤس الأجسام . بؤس العقول . بؤس الموت الرابض فى الأزقة و الهواء العفن فوق الرؤوس . و السؤال الذى لا أعرف له إجابة . إن ضياع البهجة أو إفتقادها قد يحدث مرة أو مرتين فى المجتمع و يمضى . لكننا فى بلادنا كلما صادفتنا البهجة . ضاعت منا دائما

، و يكون علينا أن نبدأ من جديد . أجل بلادنا للأسف لا تتحرك إلى الإمام . تنتصر ثم يخبو كل شيئ . و تعود تتمدد على الأرض جثة بلا حركة . ينهشها النمل و الغربان. و تاريخنا هو هذه البهجة التى كلما تحققت ضاعت . و يكون علينا أن نبدأ من جديد . تماماً كما هو حادث فى أسطورة سيزيف . ذلك الذى حكمت عليه الألهة أن يصعد بصخرة إلى قمة الجبل . و كلما صعد بها سقطت . و يكون عليه أن ينزل من خلفها و يصعد بها من جديد و لا ينتهى أبداً. تلك الأسطورة التى إعتبرها الوجوديون علامة على حياة الأنسان و جوهر العبث فيها . لكنى لم أتخيل أن هذا الوضع العبثى يمكن أن يشمل المجتمعات أيضاً . أنا الآن لا أرى غير ذلك بعد أن ماتت البهجة. سعاد ، و أتساءل فى ألمٍ . لماذا يا ربى كلما إقتربت منا البهجة رحلت عنا

نهر أسامة البحر !!

« كنت أظن أن الفساد يدفع ثمنه الفاسدون والمفسدون أو في اسوأ الأحوال لا يهرب الفاسد بفساده دون عقاب .. كنت ساذجاً ! وإذا بالفساد يدفع ثمنه الأبرياء . يدفعون الثمن ليس بأموالهم وممتلكاتهم فقط ولكن بأرواحهم. «نهر» . الفتاه الشابة الفنانة سددت فاتورة الفساد بروحها وحياتها .. نظرة واحدة على أعمال نهر الفنية تكفى لاكتشاف مدى رحابة وصدق البراءة التى كانت تعيشها فهل كان عليها ان تدفع روحها ثمنا للصدق والبراءة ؟

هذه أجزاء من كلمة الفنان الكبيرحلمى التونى فى تدشينه لمعرض الفنانه الشابة الراحلة نهر أسامة البحر التى فقدت حياتها هى وأختها وأمها تحت أنقاض عمارة لوران الشهيرة التى سقطت فى الاسكندرية عام ٢٠٠٨. ونهر ابنه فنان وكاتب هو أسامة البحر وعمها هو الفنان التشكيلى الكبير ثروت البحر أحد أهم أعلام الفن المصرى . وفى الاسكندرية ، طبعاً . والمتأمل لتاريخ نهر التى لم تبلغ السابعة والعشرين يفاجأ بكم الدراسات التى قامت بها وشهادات التقدير التى حصلت عليها خلال دراستها الجامعية فى كلية الفنون بالاسكندرية وبعد ذلك ، وكم المعارض التى شاركت فيها والخبرات التى حصلتها فى الجرافيك والفوتوشوب والانيميشن والإخراج السينمائى والتصوير الفوتوغرافى وغير ذلك إلى جوار التصوير والرسم . ويقول عمها الفنان الكبير ثروت البحر « جاءت نهرمثلنا جميعاً . يقصد هو وأخيه أسامة والجد محمد البحر. على

حافة الشعر والفن والطبيعة الفطرية التى كانت أقرب لملائكيتها وبراءتها ثم للإنسان والحياة والموت كشهيدة أيضا. كل ذلك متسق مع روح الطبيعة أملا فى أن يصبح هذا النظام فى المجتمع واقعا حيا نعيشه . وهنا تأتى المعاناة والحيرة . كيف تكون طبيعيا فى مناخ وعالم غير طبيعى وفيه فساد كبير ؟ وجاءت مفاجاة رحيلها المبكر كمأساة أدمت قلوبنا جميعاً .والذى واجهه أسامة البحر ببسالة وسمو ونبل خليق بفنان وإنسان حقيقى ...

جاء رحيل الأسرة كلها أيضاً ماساوياً وغير طبيعى بكل المقاييس مؤكداً من جديد إنه من الصعب أن تعيش طبيعياً وجميلاً فى واقع غير طبيعى وغير جميل ...»

وقالت عنها الدكتورة نهى الزينى .فى التراث الشعبى مقولة فلان ابن موت تقال عن شخص اكتملت صفاته وسمت نفسه فوق طين الأرض الذى يشدنا إلى أسفل . كذلك شعرت فى الدقائق الفعلية التى جمعتنى بنهر . فعلى الرغم من امتلاء القائمة بالعديد من الأشخاص فإنها وحدها بدت كنسمة عطرة هبت من مكان علوى لتنعش جمعنا للحظات .. وقالت الدكتورة نهى الزينى قبل ذلك عن نهر. ذات مساء شتوى أطلت بقامتها السمهرية ووجهها البدرى بملامح مرعية وابتسامة عذراء خجول تتلألأ فى عينيها البديعتين . أقبلت نحوى من بين الحضور بصحبة والدها المهندس الفنان أسامة البحر. مدت يدها تصافحنى بينما والدها يخبرنى بكل فخر إنها بدأت فى الإعداد لرسالة الماجستير فى الفنون الجميلية .مازلت أذكر شعورى لحظتها . لقد قلت كلمة واخفيت كلمات . أما ما قلته ضاحكة فهو إنه منطقى أن تدرس الجميلة الفنون الجميلة . وأما ما أخفيه فكان شعوراً غامضاً بأن هذه الفتاة لا تمت لواقعنا بصلة . يعنى بنت موت !

على نفس الوتر كتب علاء الأسواني « الوجوه التى أبدعتها ريشة نهر البحر على روعتها ودقة ملامحها جميعاً أرواحٍ قلقة وأذهانها متوجسة منهكة .البشر فى لوحات نهر جميعاً يبدون كأنهم يعانون من هم ثقيل جاثم لا قبل لهم به . وكأنهم يحاولون عبثاً أن يهربوا بنظراتهم الحزينة من مواجهة قدر يتربص بهم. بينما هم لا يملكون إلا الإذعان له ... إلى أن يقول : كانت تحس على نحو غامض مؤكد بأنها لا تنتمى الى عالمنا وأنها لنا تبقى بيننا طويلاً ..»

أنا أيضا شعرت بذلك كله وأنا أدخل المعرض الذى أقامته ساقية الصاوى ومع أول خطوة خطوتها فيه حيث بدأ فى المدخل بكتابات نهر التى كانت تكتبها لنفسها « اللهم إنى أسألك الشهادة بصدق ومن كل قلبى أسألك ميته الشهداء ...» « اللهم لقد حرمتنا النظر إلى رسولك فى الدنيا فلا تحرمنا النظر إليه فى الآخره «» البراءة ترى الحقيقة أسرع وأوضح فتنتج الجمال الأرقى » « ليس كل واقع هو الحقيقة وتكون الحقيقة فى أغلب الأوقات هى كل ما هو بعيد عما تتصارع عليه أجساد واقعية «.

ولم يفارقنى إحساسى . ولم أكن قرأت شيئاً مما ذكرته . وأنا اتابع لوحاتها . خطوطها التى تبدو وكأنها تمرح فى الفضاء . ناشدة حرية أوسع . ومكاناً أرقى ولوحاتها الزيتية التى تبدو فيها تكوينات الجسد تشكيلاً للروح . ولم يفارقنى هذا الإحساس فى الندوة التى أقيمت فى الساقية . والتى تحدث فيها كثيرون عن الفساد . بينما أنا أفكر فى الإسكندرية . التى هى الكنز الذى نهلت منه نهر الحزن السكندرى . الذى لا يعرفه إلا من وقف على شاطئ البحرفى شهر سبتمبر وهو يرى السحب السوداء تتدافع من الغرب فوق المدينة . وتحتها طيور النورس تحاول أن ترتفع لعنان السماء . وكان أجمل تلخيص للفساد هو ما قاله المهندس ممدوح حمزة إن بناء العمارات

لا يمكن أن يخطئ فيه أحد. لكن الفساد يجعل المواد التي تستخدم من حديد وأسمنت وغيره غير قادرة ، مغشوشة ، وخصوصا ما دخل منها إلى مصر قادما من الخارج في الثمانينات أو ما يحدث من تواطئ بين الملاك والمشرفين على البناء . تواطؤ أساسه جشع الملاك .. تشعبت الندوة إلى كل ما يمكن أن يقال عن الفساد ، وظل قلبي يدق مع مارأيته من كتابات نهر ورسومها ، وما قالته من أن « كل دورة حياة مهما كانت قصيرة هي نفسها دورة حياة الوجود » والتي علق عليها الفنان عادل السيوي « كتبت نهر هذه الكلمات الحاسمة ببساطة ميزة ، وكأنها ترى بعينيها تلك المدارات الخفية التي تربط أي تجربة مهما كانت مختصرة بحركة الكون ودورته الخالدة » وأختم حديثي بما كتبه أيضا « لقد كبرت نهر بيننا نحن الذين اعتدنا التساكن مع الظلال والعتمة . بل ومع السواد نفسه . ثم تركتنا كضوء منفلت نشتهية ولا نمسكه . كشأن جمال البدايات كلها ».

رحم الله نهر، التي كان يمكن أن تكون روحا سكندرية تغمر الدنيا بنورها وتسامحها، والتي كان يمكن أن تحتل مكانها بين فناني الثغر وهذه الأمة كلها . كحالة لا تتكرر نفرح أمامها ونتحرر من كل سوء . ورحم الله أمها وأختها . وساعد والدها الجميل الطيب الفنان المثقف أسامة البحر على أن يتحمل الحياة من حوله وقد صارت خالية...

الليل....

النهار للعمل والليل للراحة والسمر. هكذا درجت البشرية وتعود الناس . لم يعلمهم أحد ذلك ولم يطلبه منهم ولكن فقط لأن الدنيا مضيئة بالنهار ومظلمة بالليل . ففى الضوء يسعى الانسان الى رزقه ويعود مع المساء متعبا لينام أو يسهر مع غيره من الأهل أو الجيران لينسى مشقات النهار .لم يخرج أحد على هذه القاعدة الاضطرارية الا الحاكم بأمر الله الذى فى احدى نوباته العقلية قرر أن يكون العمل بالليل والنوم بالنهار وبينما هو يمر على الرعية النائمة بالنهار وجد نجارا - فيما أذكر ان لم تكن مهنة أخرى - يعمل فى دكانه فأمر بقتله لكن المصرى الأريب قال له ياسيدى أنا سهران من ليل امس فضحك الحاكم بأمر الله وعفا عنه .

لم يشذ عن هذه العادة المكتسبة أحد فى الازمان الغابرة الا القتلة واللصوص من قطاع الطرق والمحبين والكتاب والمبدعين . كل منهم رأى الليل له لأسباب تخصه فالمجرمون يريدون النفاذ بجرائمهم والمحبون لا يريدون انكشاف أسرارهم أو يبكون سعداء أو مقهورين والكتاب والمبدعون يريدون الكون خاليا الا منهم والله مصدر الهامهم .كانت الحروب أيضا لا تتم بالليل الا فيما ندر وكانت بعض الأعمال البسيطة تتم على ضوء القمر ولكن مع تقدم الزمان واكتشاف الانسان للإنارة بشكل أكبر ثم بشكل عظيم مع اكتشاف الكهرباء صار الليل نهارا فازداد السمر وانتقلت أعمال نهارية مثل السفر إلى الليل وازداد النشاط فى الليل فصارت لدينا

شركات ومصانع تعمل فيه ولم يعد اليوم الذى هو أربع وعشرون ساعة كافيا لطموحات الانسان والدول .وصارت أيضا الحروب بالليل والنهار مع المدفع والطائرة والصاروخ . وفيما شهده العالم من حروب عصرية كانت غارات الطائرات الليلة هى أكثر وأشق الغارات .ومن الوقائع المدهشة أن الفيلد مارشال مونتوجمرى قائد الجيش الثامن البريطانى فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية كان ينام دائما فى العاشرة مساء . وليلة معركة العلمين الشهيرة التى بدأها الجيش الثامن على قوات المحور فى الصحراء الغربية ليلا ، ما أن بدات المعركة فى العاشرة مساء. الا ودخل القائد العظيم مونتوجمرى الى مخدعه فى مقر القيادة بمنطقة برج العرب لينام . ونام بالفعل ولم يوقظه أحد إلا فى موعده الصباحى ، رغم أهمية المعركة التى كان ينتظرها العالم ، وهكذا فعل مونتوجمرى كل يوم حتى خرجت قوات المحور من أفريقيا كلها .

الكتاب والمبدعون هم الذين فى أغلبهم يرون الليل نهارهم الحقيقى حين تصمت الدنيا وتتسع وتنزل اليهم ربات الإلهام . وأنا منذ عرفت الكتابة لم أكتب بالنهار إلا مرات قليلة استثنائية وكانت فى الأغلب مقالات وليست قصصا أو روايات. ولحسن حظى لم اكن ملتزما بمواعيد نهارية للعمل منذ وفدت القاهرة فكان الليل ولا يزال هو حياتى الحقيقية. أنفقت اكثر من نصفه فى الخروج ونصفه الثانى فى الكتابة التى تبدأ عادة بعد منتصف الليل بالنسبة لى ولا يكون معى غير الموسيقى . أذكر أننى فى الأحداث الكبرى للوطن صحوت بعد أن بدأت مثل مظاهرات يناير عام ١٩٧٧ .ومثل أحداث سبتمبر التى قبض فيها الرئيس السادات على كل معارضيه. وأذكر ذلك اليوم أننى تركت البيت بعد الظهر ولم أعرف شيئا والتقيت مع الصديق الكاتب محمود الوردانى صدفة فى الأوتوبس فأخبرنى واندهش من كونى لا أعرف قلت له كنت سهران واستيقظت

متأخرا فقال طيب ما تعملش كده تانى لحسن تقوم ثورة وأنت مش داري .وضحكنا .حرب اكتوبر حدثت وسط النهار وكنت فى زيارة من الاسكندرية للقاهرة لبعض الأعمال لذلك عرفت بها فى موعدها والحمد لله . أشياء كثيرة جرت فى الوطن لم أعرفها فى موعدها لأنها جرت فى النهار أو فى الصباح الباكر . الان والحمد لله هناك برامج فضائية اخبارية بالهبل تعيد علينا ما جرى بالنهار وأغنتنى تقريبا عن النهار خاصة وأنا غير مرتبط الآن بأى عمل .لم يصاحبنى فى الليل فى البيت الا البرنامج الموسيقى بعد الثانية عشر مساء هذا البرنامج الذى يريدون فى الإذاعة القضاء عليه ويحولونه إلى برنامج تجارى ملئ بالإعلانات القبيحة رغم أن من أهم ميزاته أن الموسيقى تنطلق منه بالليل دون مذيعين يتحدثون حتى الصباح الا فيما ندر. تخيل أنت نفسك تستمع الى موسيقى لموتسارت أو باخ أو تشايكوفسكى ثم تجد فجاة إعلانا عن السيراميك والحمام . تخيل نفسك تستمع الى موسيقى تصويرية لأفلام عالمية عظيمة مثل الدون الهادئ او قصة حب او دكتور زيفاجو أو الأب الروحى ثم يقطعها عليك اعلان عن الهامبورجر والسوسيس وغير ذلك من الأكلات المسمومة التي انتشرت فى البلاد . لا يتمتع من يريدون ذلك بأى ذوق للأسف. وهذا آخر معقل للفن الجميل يريدون الاعتداء عليه لأنهم تجار لم يستمتعوا يوما بكتاب بديع ولا مقطوعة موسيقية .لا يرون الجمال إلا فى المال ويصرون على تشويه روح الانسان المصرى فى أقل ما بقى له بعد ان شوهوها فى كل شيئ .على أن هذا ليس الموضوع . فقط تذكرت هؤلاء معدومى الاحساس بالجمال وأعتذر لنفسى وللقارئ أننى شوهت إحساسه بالليل الذى أيضا تنطلق فيه دعوات المحرومين وتنزل دموع ذوى الكبرياء بعيدا عن من سبب لهم الألم وتنتعش فيه الذكريات ويتمدد الزمن فيصبح أكبر من حقيقته ويبدع فيه المبدعون فيضيفون الى العالم القبيح

من حولهم عالما من الجمال ما يلبث أن يصل الى الآخرين كتبا أو موسيقى أو افلام أو ما تشاء من ابداع فيتسع العالم حول الناس ويصبح أجمل .والليل ليلان يا صديقى .ليل شتوى هو فى الغالب الذى يحدث فيه هذا كله وليل صيفى قصير، ولليل الشتاء حصته الأكبر من الجمال .وفى كل ليل تعالوا لا نحرم أنفسنا من ذكريات جميلة أو إبداع أوقراءة وتعالوا ندعو معا أن يخلصنا الله من كل من يريد شرا بالبلاد .

الشتاء

أفرح بالشتاء أكثر من فرحي بأي من فصول السنة .هل هي طبيعة سكندرية؟ . ربما ,لأن الأسكدرية في الشتاء تكون خالصة لأهلها . وأهلها زمان لم يكونوا بهذه الكثرة الكاثرة .كما أن الاسكندرية في الشتاء تنعم بدفئ لا تنعم به القاهرة التي هي في الجنوب والسبب طبعا أن القاهرة في الشتاء أقرب الى المناخ الصحراوي . حارة أو دافئة بالنهار وشديدة البرودة ليلا . أما الاسكندريه فهي تقع تحت ما درسناه في الجغرافيا ونحن صغار . أعني نسيم البر وابحر . فالبحر الذي يتشبع بالحراة بالنهار يعود ليلا وينفث هذه الحرارة على المدينة فلا يفارقها الدفئ .كنت سنوات الشباب هناك انتظر حتى يكف المطر ثم أنزل امشي وحيدا على الكورنيش من محطة الرمل حتى سيدي جابر على الرصيف الملاصق للعمارات وعلى يساري ذهابا ويميني عودة صوت البحر والأمواج التي ترتفع وتتجاوز الصخور وسور الكورنيش المنخفض وتتجاوز ايضا الرصيف العريض وتكاد تصل الى نصف الطريق . بينما أنا امشي مسرعا لا أكف عن لمس جدران البيوت التي هجرها سكانها وأغلقت نوافذها انتظارا للصيف القادم وأشعر تحت يدي بالملمس البارد للجدران الذي كان ينعشني جدا لا أعرف لماذا. لم أشعر ببرد حقيقي في حياتي إلا حين وفدت الى القاهرة عام ١٩٧٤. وجدت ليلا مختلفا في الشتاء . بارد لم أتعوده. ولم يكن ممكنا أن أمشي على النيل بعد المطر . وأذكر جيدا كيف كنت أرتعش من البرد وأنا اقف في منتصف الليل في ميدان التحريرمنتظراً الأوتوبيس الذي سيقلني الى حدائق القبة أو

روكسى حيث سكنت فى بداية حياتى هنا بعض الوقت . لم يعد ما كنت أرتديه فى الاسكندرية مناسبا للقاهرة وهو لم يكن يزيد فى الاسكندرية عن بلوفر صوف فوق القميص فى الشتاء . ولا أنسى عام ١٩٧٦ حين قررت شراء جاكت ثقيل من الشمواة . ومن فرط برد القاهرة اشتريته له بطانة ثقيلة وياقة من الفرو ولبسته بالنهار غير قادر على التفرقة بين برد النهار والليل الا أنه كان خانقا جدا .كنت ساعتها أسكن مع صديقى المرحوم سامى صلاح المخرج النابه الذى قدم بعد حرب أكتوبرعرضا وطنيا عرفه كل المثقفون ذلك الوقت على مسرح المركز الثقافى السوفيتى . الروسى فيما بعد . احتفت به كل الأفلام الكبيرة والصحافة كلها وكان من اشعار سمير عبد الباقى وغناء المرحوم عدلى فخرى . كان سامى رحمه الله خفيف الظل عبثيا فى سلوكه رغم جديته الكبيرة فى دراسة وفهم المسرح ولما قلت له أن الجاكت ثقيل يضايقنى بالنهار وانا لا أخرج ليلا إلا قليلا اقترح على أن نخرج بالليل كل يوم ونسهر حتى الصباح لأنه لا يصح أن يظل الجاكت بلا استخدام . كان رأيا عبثيا الا اننى وافقته ورحت أخرج كل يوم بالليل وهو معى . أنا بالجاكت الشمواة الثقيل وهو بجاكت عادى وعشقت القاهرة بالليل فقط اذ كنا نمضى كل ليلة فى منطقة الحسين والجمالية والقلعة حتى جاء يوم وجدته يقول لى ضاحكا أننى قمت باستخدام الجاكت كثيرا ونعمت دائما بالدفئ لكنه عانى دائما من البرد فما ذنبه . كان يمكن طبعا أن أخرج وحدى ويتخلى عنى لكن ذلك لم يحدث . صدفة زارنا صديق من الاسكندرية أعجبه الجاكت فاشتراه منى ولم أنقطع عن رحلة الخروج الليلى ومعى صديقى الجميل سامى نعانى من البرد معا أو نقسم بيننا البرد .بل كنا نسهر كثيرا حتى الصباح ونتذكر أن الحكاية بدأت بضرورة استخدام الجاكت لكنها صارت عادة جميلة .وحتى بعد أن ترك سامى البلاد للدراسة فى أميركا لم أنقطع

عن هذه العادة التى شاركنى فيها فيما بعد الفنان الجميل صلاح عنانى وكنت قد فارقت حدائق القبة الى امبابة وكان هو يسكن فى الزمالك ذلك الوقت فكنا نعود مشيا من القلعة حتى بيوتنا مع الصباح وما أكثر الحوادث الطريفة التى حدثت لنا فى هذه لرحلة الليلية التى كان أحيانا يكون معنا فيها فنان صديق اخر هو عادل جيلانى .شيئا فشيئا انقطعت المشاوير الليلية ولاحظت تغير المناخ وانقطاع المطر عن البلاد وتقريبا امتداد الصيف أكثر العام . كان ذلك يضايقنى جدا ليس لأنى لم أعد أخرج فى الشاء حتى الصباح ولكن لأنه بلاد بلا مطر تعنى بلاد ينقصها خير كثير .وكثيرا ما فكرت أن ما نعانيه من مشاكل اقتصادية وسياسية يمكن احتماله لكن أن ينقطع المطر أو يختصر فصل الشتاء فى أيام قليلة فهذا ظلم من الطبيعة لبلد تستحق أن تكون أفضل من ذلك . الطبيعة تتخلى عنا وربما الله الذى هو رازق الكل، الأرض وما عليها من الناس . قرأت كثيرا عن الاحتباس الحرارى وظاهرة ثقب الإيزون والتلوث الذى شمل العالم وارتفاع نسبة ثانى أوكسيد الكربون فى الغلاف الجوى لكن أيضا لم يكن ذلك كافيا ليقنعنى بانقطاع المطر . وفى متابعتى وزياراتى للاسكندرية لاحظت انقطاع نواتها الشتوية أو تأخرها وارتباك مواعيدها أو قلة عدد أيامها وهكذا فقدت المدينة كثيرا من علاماتها الشتوية وخلال ذلك كله كنت أفكر أن أحد العوامل الكبرى لتغير المناخ فى مصر هو العملية الاجرامية التى جرت بردم كثير جدا من مساحات البحيرات العظمى التى أنعم الله بها على البلاد المصرية . بحيرات مريوط وادكو والمنزلة والبرلس والبردويل وقارون . والحقيقة العلمية تقول ذلك أيضا. وعلى غيرما يشعر به معظم أهالى الاسكندرية لا أذهب الى المنطقة الجنوبية لمحرم بك حيث كانت تصل بحيرة مريوط ، والتى صار اسمها الان داون تاون حيث يقع كارفور ومطاعم وملاه كثيرة . لا أذهب هناك وأشعر

بالسعادة التى يشعر بها غيرى . دائما أتذكر أن هنا كانت تمتد بحيرة مريوط التى بدأ ردمها بزبالة المدينة منذ عام ١٩٧٥.ولا اقطع الطريق الدولى أو الصحراوى إلا وأتذكر أن هنا كانت تمتد بحيرة مريوط على الجانبين وكانت تساهم بالطبيعة أن يكون شتاء الاسكندرية شتاءها الحقيقى الذى ظلت عليه الاف السنين . يدهشنى جدا ان أكثر شباب الاسكندريه لايعرفون ان الداون تاون هذا قام على مياه ما كان علينا أن نهدرها .هذا ما جرى فى الاسكندرية وغيرها فى البلاد . وقبل أسبوعين وأنا أزور الاسكندرية لاحظت أمطارا كثيفة اسعدتنى جدا رغم أننى كنت ذاهبا حزينا لزيارة بعض المرضى من الأصدقاء . هذه هى نوة المكنسة التى تكنس أمطارها ورياحها ما يقابلها .وعدت الى القاهرة فوجدت أيضا مطرا ولو خفيفا متقطعا . قلت ياربى هاهو الشتاء يعود الى موقعه من الزمن وفرحت جدا وكما كان يفعل أهلنا الطيبون توقعت خيرا كثيرا للبلاد .فهل يحدث ؟اتمنى . بلا مطر لا تكون البلاد بلاد ...

الوقت...

انشغل الانسان منذ ظهر على الأرض بالمكان فهو الذى يراه حوله وهو الذى يحدد خطواته وكان عليه فى البداية أن يفعل ما يستطيع ليتقى شرور هذا المكان الذى لم يكن رحيما به أبدا . كانت الكهوف القديمة مفتوحة أمامه يمكن أن يدخلها هاربا من بطش الحيوانات المفترسة والصقيع أو الحر وفى هذه الكهوف بدأ يمارس شيئا من الرسم على الجدران يقطع به الوقت ويسجل أحلامه ومخاوفه وكأنه يسيطر على المكان فى الخارج بعد أن وجد فيها نوعا من الاستقرار .ثم رأى الانسان الليل ياتى بعد النهار فأدرك ان شيئا يحدث بعيدا عنه يسبب هذا الضوء وهذه الظلمة ولم يكن صعبا أن يعرف أن الشمس سبب الضياء واختفاؤها سبب الظلمة فهو يرى ذلك يحدث أمام عينيه كما أنه فى الكهوف استجاب جسده للنوم ثم استيقظ على نهار جديد . لقد أدرك الانسان الوقت وكما حاول ونجح أن يسيطر على المكان حاول السيطرة على الزمان .ولم تنقطع هذه المحاولة حتى الآن رغم أنه يدرك أن صناعة الوقت تحدث بعيدا عن قدراته وأنه لا يستطيع السيطرة على الوقت كاملا الا اذا أوقف دوران الأرض ومن يستطيع أن يفعل ذلك ؟

شيئا فشيئا أدرك الانسان قيمة الوقت فلقد رأى أنه إن لم يصنع لنفسه مكانا دافئا سيموت فى الشتاء القادم وان لم يعد الى بيته قبل الظلام ستأكله الحيوانات وان لم يعد زراعة النباتات فى موسمها لن تنبت من الأرض وهكذا حتى أدرك احتياجه للإمساك

بالزمن بشكل واضح وبعيدا عن الاعتماد على الذاكرة فابتدع التقويم وقسم الوقت الى أعوام وشهور وأسابيع وأيام وكان هذا هو أقصى ما يستطيع أن يفعله مع الوقت . ظل الزمان مستقلا عن الإرادة البشرية أقصى ما يستطيع الانسان من سيطرة عليه هو أن يعيد الى ذهنه بعض ذكرياته وهو يدرك تماما أنها لن تعود ولن تغادر منطقة الخيال. وانشغل الانسان بالوقت من ناحية أخرى ترتبط بالعمر الذى هو قصير جدا أمام العالم فصار عليه أن يسبق الوقت ليحقق ما يريد لنفسه أو لأسرته او لمجتمعه أو للبشريه قبل أن يغادرها الى وقت آخر لا يعرف أحد كيف سيكون وإن آمن كل البشر به وبأنه سيكون أفضل لأنه هناك سينتهى الظلم وسينال كل شخص جزاءه عن الخير الذى فعله أو الشر الذى اقترفه . لكن ذلك لم يصرفه عن السيطرة على الوقت هنا .والآن على الارض .هناك أمم أدركت قيمة الوقت فاندفعت للعمل فى الدنيا بأقصى قوة وتقدمت وكل هذه الأمم تناوبت على امتلاك الحضارة ردحا طال أم قصر من الزمن وحار الفلاسفة فى فهم تقدم وتأخر الأمم ووضع الكثير منهم القوانين المنظمة لذلك مثل التحدى والاستجابة أو صراع الاضداد وكلها قوانين صالحة لتفسير ما جرى وما سيجرى حتى وصلنا الى هذا العصر الذى هو عصر الوقت بامتياز اذ لا فرصة للأسف أمام من يتأخر عن قبول تحدى المرور السريع للوقت. ففى كل ثانية تقريبا اختراع جديد هنا أو هناك حتى أن الانسان قام بتقسيم الثانية الى مليون وحدة .الفيمتو ثانية .للسيطرة أو محاولة السيطرة على الظواهر الطبيعية بطريقة أكثر احكاما تتيح حتى السيطرة عليها قبل أن تحدث وسيكتشف الانسان إنه حتى هذا التقسيم الجديد واسع وفضفاض للزمن وسيحتاج لتقسيم الثانية الى وحدات أقل من ذلك للسيطرة على ما يحدث حوله أو يريد أن يحدثه هو فى المكان .وهكذا فالصراع الأساسى للبشريه هو مع الوقت

وبمعنى أوضح هو مع العلم .لم تعد الأمم فى حاجة الى استعمار أمم أخرى للسيطرة على ثرواتها فهى تستطيع أن تصنع هذه الثروات . النانو تكنولوجى سيتيح صناعة كل المنتجات الطبيعية من أشياء أخرى .وكل ما يقال عن تفوق جنس على الأجناس لأسباب دينيه أو لون البشرة سيبدو لا قيمة له ما دامت الأمم الأخرى المختلفة فى اللون والدين حتى لو كان مجوسيا تستطيع أن تتفوق فى السيطرة على الوقت وتنتج بالعلم مالا تستطيعه الأمم الاخرى ذات التاريخ العريق أو الديانات السماوية .أجل العصر الذى يتميز فيه الناس باللون أو الدين اقترب على الانتهاء وكل من يثير هذه النعرات يعود بنا الى الوراء آلاف السنين فالتميز الوحيد الآن وفيما بعد هو تميز السيطرة على الوقت ومن ثم على المكان والطبيعة كلها .أنت تستطيع الآن بضغطة على الماوس أن تدخل من الانترنت على أى مكان وزمان ولا تتميز عن غيرك فى ذلك بكونك مسلما أو مسيحيا او يهوديا أو بوذيا أو ملحدا . أنت تتميز بقدرتك على السيطرة على الوقت وبهذه السيطرة تمتلك الحاضر والماضى وتستطيع أن تمتلك المستقبل إذا ساهمت فى صناعته .هل يمكن أن نعى هذا الدرس وندرك للمرة الاخيرة إنه لامكان لأمم لا تعرف السيطرة على الوقت وأنه لاسبيل لهذه السيطرة إلا بالعلم .العلم الذى ينقص مدارسنا وجامعاتنا وحياتنا بشكل عام . العلم هو الذى سيقضى على النعرات العنصرية والطائفية فى العالم كله ونحن فى حاجة الى هذا العلم لنقضى على ذلك فى بلادنا . بل نحن فى حاجة الى ذلك قبل غيرنا . تصور انت لو ان العدد الاكبر من شبابنا قد حصل على تعليم كبير وعظيم هل كان سيعانى من هذه البطالة ؟ هل كان سيسافر ليعمل فى مهن رديئه ؟ هل كان سيرتدى هذا الخليط من الازياء الذى يعود الى عصور الجهل والجهالة ؟ هل كان سينظر الى الماضى باعتباره الماضى السعيد أو إلى الآخرة باعتبارها بديلا

عن الدنيا ؟ هذا هو التحدى الكبير لأى أمة تريد الاستمرار . الوقت والسيطرة عليه ولن يكون ذلك إلا بالعلم.. لن يتغير المكان إلى الأفضل إلا بالسيطرة على الزمان قبل أن يمضى ونحن نعود فيه الى الوراء ولا سيطرة على الزمان الا بأن نكون أسرع من ايقاعه ودقاته ولن يكون ذلك الابالعلم .

أهمية أن تشتري مقشة وتبطل تعيط .

- مالك؟

- حضرتك تعرفني ؟

- ابدا بس باشوفك كل يوم تيجى على القهوة ومعاك جرايد كتير قوى تقراها وتقعد تعيط .

- دا اليومين دول بس .

- آه فعلا قبل كده كنت باشوفك مبسوط وانت بتقرا . لكن ايه اللى غيرك كده؟

- منه لله البرادعى ؟

- غريبة .ليه مش موافق عليه ؟

- انا ما عرفوش وعمرى ماعرفت حد مهم .لكن كلامه عن تغيير الدستور عجبنى .

- طيب بتعيط ليه ؟

- علشان رحت مؤتمر ائتلاف الاحزاب وكلامهم عجبنى لأنه برضه عن تغيير الدستور ؟

- انت غريب أوى. المفروض تنبسط. ليه بتعيط ؟

- اصل انا كنت دايما اشترى الجرايد المعارضة والمستقلة .واشوف كل الكتاب بيكتبوا ضد الحكومة واقول خير.

- وايه اللى حصل .؟

- كتاب كتير اوى من اللى كنت باحب أقرالهم لاقيتهم بيتريقوا على البرادعى او يعنى بيشككوا فيه بطرق باينة ومش باينة .

- حقهم. مش فيه ديموقراطية ؟

- وبعدين لاقيتهم برضه بيشككوا فى ائتلاف الأحزاب .ياراجل انا شفت كل حاجة بعينى. لافيه حد شتم حد ولا كان فيه اختلافات على تغيير الدستور. كان فيه ناس صوتها عالى بس وهى بتتكلم مش أكتر. حماس يعنى أو ربنا خلقهم كده .جابت منين الجرايد دى ان كان فيه اختلافات وخلافات ؟

- والله دى جرايد وعايزة تبيع . انا متهيألى كده مادام بتقول رحت وشفت.

- لا المسالة اكبر من كده . مش معقول حضرتك مش فاهم.

- بصراحة مش فاهم .

- الكتاب دول كلهم كانو بيعارضوا الحكومة .

- انت اللى بتقول .

- ودلوقت بيعارضوا البرادعى والأحزاب .

- قلت لك يمكن اتعودوا بس على المعارضة .

- ما تسخرش منى أرجوك أنا عارفك وبشوفك برضه بتقرا جرايد كتيرفى القهوة . يعنى مهتم بالدنيا زيى .

- حضرتك عايز تقول ايه ؟

-..................................

- حضرتك بتكلم نفسك . بتقول سيرك!؟ .

- بأقول أمال النصبة اللى كنا ليل ونهار فيها دى كانت ليه ؟

- لا مش سيرك . وجهات نظر يمكن .

- يا استاذ دول بيهاجموا البرادعى والاحزاب كمان . وتقول وجهات نظر ؟ المفروض يقولوا لازم يتحدوا مع بعض.مثلا يعنى. ويتحدوا هما كمان معاهم.

- اريحك وما تعيطش تانى .

- ريحنى الله يخليك .

- اللى بيهاجموا الاحزاب دول اكيد تبع البرادعى.

- يبقوا عبط لان مادام الاحزاب اتحركت يبقى لازم يكون فيه طريقة تجمع بين بتوع الاحزاب وبتوع البرادعى .ولو وقعوا فى بعض الحكومة تكسب .مش معقول مش فاهمين كده .

- طيب اريحك اكتر.

- اتفضل.

- مصالح .

- طيب وفيه مصلحة أكتر من تغيير الدستور ويبقى عندنا نظام جمهورى بحق وحقيق ؟ داهما أصلا كانوا بيقولوا كده .وبعدين مصالح زى ايه ؟فلوس وبيقبضوا .مراكز وموجودين فيها . يا راجل دول ليل ونهار فى الفضائيات بيهاجموا النظام يقوم لما ييجى حد يطالب بالتغيير يهاجموه .

- وبعدين

- ولا قبلين أنا خاجنن.

- ياراجل ياطيب هو لو اتغير الدستور وجه رئيس تانى مثلا حد من دول حيفضل فى مكانه .

- يعنى ايه ؟

-يعنى اى نظام جديد بيجيب رجالته .

- طيب دول كتاب وصحفيين بيقولوا دايما انهم مستقلين عن اى نظام ومع الحق بس .

- طيب فهمنى انت ليه بيعملوا كده ؟

- ماهو انا مش فاهم .عايزك انت تفهمنى . انت اللى سألتنى باعيط ليه.

- انا فهمتك .مصالح .

- يعنى انت موافق على كلامى ؟

- اللى هو ايه ؟

- سيرك .

-......................

- ليه مش بترد .

-.................

- لا عايزين البرادعى ولا الأحزاب تغير الدستور أمال عايزين ايه ؟ وايه لازمة الشتيمة كل يوم فى الحكومة وجرايد الحكومة وإيه لازمة الكلام فى الأزمات وايه لازمة السيوف اللى رافعينها على الحزب الحاكم . وايه لازمة...........

- ارجوك على مهلك شوية .حافظ على صحتك .

- حد قبلك قال لى انهم مع الحكومة وما صدقتهوش . وان احنا بينضحك علينا فى كل جرنان وماصدقتهوش . وان الجرايد دى زيها زى جرايد الحكومة . بس ناس مكتوب لها تشتم وناس مكتوب لها تنشتم واحنا ناس طيبين وبنصدق . أيوه حد قال لى كده وماصدقتوش .دلوقت بدأت أصدقه.باعيط بدال ما انتحر.لان مش معقول الدنيا تفضل واقفة كده.

- شوف آخر كلام عندى كل واحد حر.

- وآخر كلام عندى لا مش كل واحد حر . تغيير الدستور فوق الجميع . وكل واحد لازم يحترم البلد دى .وما يعملش حاجة تعطل حد من تغيير الدستور .

- ياريس

- بتنادى مين ؟

- شوف ربك سبحانه وتعالى معانا بعت الراجل ده اللى بيبيع مقشات فى الشارع علشان اشترى مقشة .

- انت ما عندكش مقشة ؟

- عندى مكنسة كهربائية كمان .بس حاشترى المقشة علشانك .....ياريس تعالى .

- ياعم انا عندى زيك مكنسة كهربائية برضه .

- ماهى دى مش علشان تكنس بيها البيت.

- امال اعمل بيها ايه ؟

- تكنس بيها كل اللى قريته للى بتقول إنك حبيتهم وأنهم دلوقتى بيهاجموا البرادعى والأحزاب . علشان ماتعيطش تانى .

- تفتكر دا سهل على نفسى .

- وتشرب ينسون على حسابى كمان. متهيأ لى حضرتك محتاج ينسون .

سرير بروكست

الأساطير اليونانية مستودع لكل المعانى التى عرفتها البشرية والتى لم تعرفها .خلاصة تجربة انسانية عميقة وخصبة اختلطت فيها السماء بالأرض. لم تكن الالهة اليونانية ، رغم وجودها فوق جبل الأوليمب ،بعيدة بحيث تجعلها قداستها بمنأى عن الحياة اليومية للبشر ، وما أكثر الآلهة الذين تزوجوا من نساء الأرض ، أو الذين تركوا زوجاتهم من الالهة من أجل نساء الأرض ، وكثير جدا من المعارك التى جرت على أرض اليونان وخارجها كانت كما فسرتها الأساطير بسبب هذا التدخل الالهى . طبعا هذا كله غير صحيح . أساطير . لكنها خلفت وراءها كنوزا من المعرفة الانسانية ومن المعانى التى لا تبلى مع الزمان .

« تنتالوس » مثلا . العملاق ابن الأرض «جايا» الذى كان يقف فى الغابات يمنع ويقتل كل من يعبر الطريق حتى ضج الناس من قوته وجبروته فذهب اليه هرقل . الذى هو ابن إله وامرأة من الدنيا ولم يدخل معه فى معركة . حمله إلى أعلى فقط .وباعد ما بين قدميه والأرض . التى هى أمه .فتناثر تنتالوس قطعا وترابا . العبرة واضحة . لم يعد العملاق يقف على الأرض . لم تعد له علاقة بالواقع .فصار وهما وتناثر فى الفضاء .

أخيل الذى هو أيضا ابن اله وأمراة من الأرض . بعد أن ولدته أمه ذهبت به الى النهر المقدس لتضعه فيه فيكتسب مناعة ضد الموت

،أمسكت بقدميه وغطسته فى الماء فصار جسمه كله لا تنفذ فيه السهام ولا الحراب وهكذا صار بطل حرب طروادة الذى لا يقهر حتى جاء «باريس » الذى سبق له أن خطف هيلانة والتى بسببها قامت الحرب . جاء باريس وصوب سهماً إلى كعب أخيل فمات . حين تم تغطيسه فى النهر المقدس كانت أمه تمسكه من كعبيه فلم يصل إليهما ماء وصارت نقطة ضعفه هى كعبه . كعب أخيل الذى صار رمزا على نقطة ضعف أى شخص . هكذا تستطيع أن تمضى مع مئات الأساطير الجميلة ذات المعانى التى لا تبلى مع الزمن .ومن هذه الأساطير أسطورة «سرير بروكست ».وبروكست طبعا هو صاحب السرير . كان إذا حضر عنده ضيف لينام ترك له السرير فاذا وجد أن الضيف أطول من السرير قطع قدميه ليكون مناسبا . واذا كان الضيف قصيرا شد قدميه ليكون فى طول السرير . ليس مهما ماجرى للضيف . المهم أن يناسب السرير .وهذا هو حال كل المزورين على مدى التاريخ وكل الأغبياء أحيانا وكل المداهنين دائما وكل أصحاب المصالح . ويتحقق هذا الأمر أكثر ما يتحقق فى السياسة والحياة الفكرية . طبعا يمكن أن تجده بكثرة فى الحياة اليومية . لكن هذا لا يعنينا هنا فما يفعله مستخدم فى شركة مع رئيسه حين يجعل من كلام الرئيس أو أوامره الخاطئة أمرا جميلا ومهما . لا يؤثر إلا فى منطقته ومجاله الصغير . كذلك ما يفعله أى شخص مع من هو أقوى منه أو له حاجة عنده . هذا التملق لا يتجاوز دائرته كثيرا لكن القضيه فى عالم الفكر والسياسة والآداب تكون فادحة النتائج .فهناك نقاد ومفكرون جعلوا من كتب رديئة مناسبة جدا للسرير . أطالوا قدميها أو قطعوها لتكون مناسبه للمثل الأعلى فى الكتابه .ويدخل فى ذلك صحفيون كثيرون أيضا يرون فى قصيدة رديئة فنيا أعظم الشعر لأنها تنتقد الحكومة مثلا أو الحاكم أو من هم تحت الحاكم بصرف النظر عن سؤال الصورة

الشعرية والبناء والموسيقى والايقاع وغير ذلك من جماليات الشعر الحقيقى .وهناك مفكرون راحوا يناسبون أفكارهم لمن يدفع من بلاد النفط أو غيرها فجعلوا من الأفكار الرجعية أفكارا انسانية وأعلوا من شأنها . أطالوا قدميها لتكون مناسبه ولا غيرها للأخلاق والدين .وفى الصحافة صرنا نقرأ عن حادثة أنها أكبر الحوادث وأخطرها . فى صحيفة معارضة .ولا نقرأ عنها الا خبرا باهتا لا يعنى شيئا فى صحيفة حكومية . فى الصحيفة المعارضة تشعر أن الدنيا انهارت أو ستنهار كل يوم وفى صحف الحكومة تشعر أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان . والقارئ المسكين فى حيرة ودهشة اذا قرأ الخبر فى صحف المعارضة او المستقلة تصبح قدماه أطول من سريره فلا ينام واذا قرأ نفس الخبر فى صحف الحكومة تصبح قدماه أصغر من سريره فلا ينام أيضا والمشكلة الحقيقة فى السرير الذى اختاره كل كاتب لكلامه . سرير بروكست . هكذا حالنا حتى صرنا نختلف فى أمور اتفقنا عليها أكثر من مائة سنه منها مثلا حرية المراة والديموقراطية والعلاقة مع الاخر . الغرب بالتحديد .والعدالة الجتماعية ودور رجال الأعمال ومعنى الراسمالية الحقيقى .والمواطنة .وغيرذلك من قضايا امتلات بها حياتنا اليوم وكنا قد تجاوزناها وتقدمنا كثيرا .فالراسمالية عرفناها وكان معها الحق فى الاضراب والاعتصام وحق اصدار الصحف وحق تكوين الأحزاب ومنع الإحتكار الذى هو آفة الراسمالية .وحرية الاعتقاد والعبادات عرفناها وكان شعارها التسامح الذى جعل الاقباط واليهود والمسلمين وكل الأجناس التى لاذت بمصر من أرمن وشوام وغيره تساهم فى مشروع النهضة باعتبارهم مصريين ولم يكن أحد يرفع راية الكفر يطيل القدمين او يقطعهما لأن السرير كان حرية الاعتقاد وليس التزمت .أوربا كانت نافذة المفكرين والكتاب لأنها جغرافيا تطل مثلنا على البحر المتوسط . وهذه حقيقة لا يمكن تغييرها . وهى الأكثر تقدما

من الشرق . قطعنا قدميها وأطلنا قدمى الشرق فنام التخلف فى سريرنا والحمد لله وسوغنا لذلك بكفر الاخر والأ مثلة كثيرة سيطول بها المقال واكتفى الآن بالترحم على بروكست الذى لم يكن عنده سرير ولا غيره . كان أسطورة وصار حقيقة متوحشة .

درس سقراط المنسي ....

فى القرن الرابع قبل الميلاد وفى أثينا كان سقراط فيلسوفا يجتمع حوله التلاميذ الذين سيكون منهم فلاسفة فيما بعد وعلى رأسهم افلاطون الذى ترك لنا أكثر من كتاب هى محاورات مع سقراط وتلاميذه حول أفكار كبرى مثل الجمال والحق والخير وخلود النفس وغيرها من القضايا الفلسفية . فى ذلك الوقت امتلأت اليونان بالفلاسفة السوفسطائيين الذين ملأوا البلاد بالشك فلا حقيقة مطلقة وكل شيئ نسبى فالحق ليس موجودا بذاته لكنه يخضع لوضع طالبه فالغنى ينتزع الحق الذى يكون بالنسبة للفقير هو الظلم و حرية الحاكم هى عبودية الرعية وهكذا . كانت هذه الافكار قد بدأت بزعزعة نفوذ حكام اليونان ولم يكن أحد بقادر على مواجهتها مثل سقراط الذى جعل العقل لواءه فى التفكير ومن العقل تتوالد المعانى مترابطة لا يمكن زعزعتها لأنها فى النهاية مقنعة لكل من يفكر ومتراتبة فى نسق عقلى قوى ومن ثم يمكن تعريف الحقائق الكبرى مثل الخير والحق والجمال والخلود وغيرها بأفكار لا تقبل النقاش لانها تعتمد على العقل الذى من الصعب زعزعته باعتبار قوة المنطق واتساقه وعليه فالأمور فى الحياة ليست نسبية الا فى الحاجات الصغرى لكن القيم الكبرى ليست نسبية بل صالحة لكل مكان وزمان .كانت أفكار السوفسطائيين كفيلة باحداث الثورات فى البلاد فما دامت النسبية هى الحقيقة المطلقة فكل ما يفعله الحكام والأقوياء لا يروق لى ومن ثم يمكن مقاومته

.وكانت بابا للفوضى العارمة لأنه امامها ستقف القوانين عاجزة عن الثواب والعقاب .صار سقراط بما له من قدرة عقليه جبارة هو المفكر الذى يستطيع دحض دعاوى السوفسطائيين وإعادة البلاد الى الطريق الصحيح وأتيح له المكان والتلاميذ وانتشرت افكاره ووجدت صدى كبيرا فى بلاد اليونان وأصبحت مدرسة سقراط هى المركز المشع بالعقل فى كل الأرجاء وشيئا فشيئا ضعفت أفكار السوفسطائيين وبهتت وكادت تنتهى من البلاد وهنا ظهرت زوجته التى اتهمته بالفحش والفجور والشذوذ الجنسى مع شباب المدرسه وهو اتهام لا يرتب عقابا كبيراً اللهم إلا الفضيحة لكن الدولة الأثينية التى لم تعد فى حاجة الى سقراط بعد أن استقرت احوال البلاد وجدت الوقت مناسبا للتخلص منه بعد أن صار مرجعا أكبر فى الفكر فاتهمته بالسفسطة . أجل السفسطة ولا شيئ اخر لأنه ببساطة كل الافكار التى يقرها العقل يمكن أن يقر عكسها ايضا بأدلة وبراهين اخرى. وحكم على سقراط بالموت بالسم وانتهى الامر وتخلصت اثينا من الأفكار الواقعية للسوفسطائيين والأفكار العقلية لسقراط .

هذا درس قديم جدا من دولة رفعت شعار الديموقراطية لكنها كانت دولة تقوم اقتصاديا على نظام عبودى ومن ثم لن تسمح بعدم الاستقرار. وهو درس يعكس العلاقة الشائكة بين المثقف والسلطة وهو درس يقول بوضوح انه لا أمان للسلطة فى أى زمان ومكان ورغم ذلك لم يتعظ به أحد لعدة أسباب أهمها أن جاه السلطة شديد الإغراء وأهمها ولعله الأهم فعلا أن المثقف قد لا يجد طريقا آخر أسهل وأوسع من طريق السلطة لنشر افكاره وفى حالة سقراط لم يكن الرجل عميلا للسلطة لكنه كان بالفعل مؤمنا بما يقول . هذا الالحاح الروحى على المثقف لنشر افكاره بطريقة أسهل وأسرع هو حق للمثقف لكنه حق يضل طريقه فى المجتمعات والنظم

الديكتاتورية ويدفع المثقف ثمنه فى النهاية بينما هو فى النظم الديمقراطية فى الغالب لا يرتب أى أعباء على المثقف لأنه يستطيع نشر افكاره فى قنوات أخرى كثيرة غير حكومية. وفى النظم الديموقراطية عموما ما أقل القنوات والطرق الحكومية وربما لا توجد بالمرة .وهذا الدرس يرتب على المثقفين فى النظم الشمولية الانتباه لكنهم فى الأغلب لا ينتبهون بسبب ما قلته من رغبة المثقف فى نشر أفكاره وفى هذه الحالة يكون المثقف صاحب افكار حقاً ولا يدخل فى هذا الحديث الأقل افكارا أو الذين يتصورون أن الثقافة هى فى الدفاع عمال على بطال عن النظم . وأصحاب الموقف الأول هم الذين يكون الثمن الذى يدفعونه فادحا لأنهم فى لحظة دفع الثمن سيشعرون بالغبن من النظم التى تخلت عنهم فيصرخون بالاحتجاج على هذه النظم فيؤكدون بصراخهم إنهم كانوا يفعلون ما يفعلون ليس لرغبتهم الملحة روحيا لنشر أفكارهم ولكن لارتباطهم الوثيق بالنظم وهنا سيقول أعداؤهم انظروا لم يكونوا مفكرين أحرارا بل كانوا من رجال السلطة وسيبتعد الناس عنهم وعن أفكارهم رغم إنها لم تكن كذلك . ينتهى المثقف وتهمل كتبه ولا يصدقها أحد وهكذا يكون الغبن مرتين .هل التمس عذرا للمثقف هنا ؟ ربما .ولكن هل يمكن للمثقف أن يجد لنفسه طريقا آخر ؟ يمكن اذا أراد . وفى عصرنا يمكن له أن يجد عشرات الطرق لنشر افكاره بعيدا عن مظلة أى دولة . لكن أهم ما يفعله أن يتخلى عن أى منصب حكومى مؤثر فى دنيا الثقافة . ساعتها فقط لن يجدَ الشك طريقا عند أحد فيما يكتبه ولن تعجز الدولة عن البحث عن مثقفين آخرين لاحتلال منصبه .أجل الجمع بين الثقافة والمنصب هو المدخل الاكبر للهجوم على أى مثقف ويزداد هذا الأمر حين يكون للمنصب مكاسبه الشخصية الكبرى من جهة المال والنفوذ . هذا يدفع المثقف أكثر إلى الثقة فيما يكتبه خالطا بين وضعه الوظيفى

المرموق وبين كتاباته فكتاباته. أمام نفسه لا تقل عن وضعه المرموق وحبذا لو تدر عليه اموالاً كبيرة وتجعله موجودا فى كل المؤتمرات والمجلات واللجان والمجالس الفكرية ولا ينتبه أبدا إلى أن هذا الوضع الثقافى المرموق هو ابن للوضع الوظيفى المرموق وأنه هو المدخل للابتعاد عما يكتب وأنه . هذا الوضع المرموق . هو كعب أخيل ففى لحظة تتركه السلطة إلى الأعداء فيضيع المنصب والكتابة معا .

ألف ليلة وليلة ...تااااني...!

كأن قدر المثقفين فى مصر أن يجدوا أنفسهم فى كل حين مستهدفين فى قضايا تافهة.والسبب طبعا أنه فى بلادنا ومنذ أن استشرى فيها المد الوهابى وجد بعض الناس لنفسهم عملا ليس لهم، وهو أن يكونوا حراسا للدين . ورغم أنهم وهم يفعلون ذلك يحتجون دائما بعصور السلف الصالح ،يعرفون جيدا أنه فى عصور السلف الصالح كان هناك شعب يمارس حياته . يأكل ويشرب ويحب ويلهو ويعبث وينتج ومما ينتجه آلاف الكتب التى انتبهنا إليها مع النهضة المصرية منذ محمد على فتوفر عليها فريق من المثقفين المصريين والمستشرقين الأجانب لبدء مرحلة إحياء كبرى لإنتاج هذا السلف وترويجه بين الناس ليعرفوا كيف كان تاريخهم فيه ما فيه من عظمة فى الانتاج الفكرى، وليس مجرد كلام يقال عن أثر الحضارة العربية فى تقدم الدنيا . أعيد إحياء كتبا خالدة فى الفلسفة والعلم والدين والآداب والتراث الشعبى وغيرها .ولست فى حاجة لأذكر لك هنا العشرات منها . فقط اذكركم إنه فى كتب الآداب امتد الأمر الى كتب لم يتخيلها أحد عن الحب والجنس . وامتدت كتب الجنس لتشمل موضوعات لا يتخيل حراس الدين هؤلاء إنه كان للعرب نصيب فى الكتابة عنها مثل البغاء ، أقدم مهنة فى التاريخ . ومثل اللواط والسحاق والولع بالغلمان . والله عارفين الاخوة رافعى القضايا ان العرب كان لهم فى ذلك وأكثر بس تقول ايه !الم يتوقف الأمر عند الخوض فى هذه الموضوعات بشكل متفرق

فى كتب كبيرة وعظيمة مثل الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ولكن كما قلت كتب متفردة لهذه الموضوعات مثل «نزهة الألباب فيما لم يذكر فى كتاب» للتيفاشى ومثل «الروض العاطر للنفزاوى» ومثل« نواضر الأيك فى علم ....» المنسوب للإمام السيوطى .وإذا أردت المزيد فما عليك إلا أن توجه الماوس الى أى موقع الكترونى عربى أو اجنبى، وتكتب عنوان مثل كتب الحب العربى او كتب الجنس العربى أو أى مصطلح جنسى عامى أو فصيح .وسوف ترى أن كثيرا جدا من هذه المواقع قد أتاحت تنزيل هذه الكتب لمن يشاء على سى دى أو دى فى دى بالجان . وأكثر هذه المواقع العربية بالذات اقامتها جماعات أو مؤسسات ينتمى أصحابها إلى الخليج العربى . لم نسمع صوتا لحراس القيم هؤلاء ضد هذه المواقع ولا يجب أن نسمع لهم صوتا فى ذلك لأن الأصل فى الحياة هو الحرية . وحرية الاختيار مكفولة لأى شخص أمام الكتب أو المواقع أو الصحف أو الإعلام بكل أنواعه . فضلا طبعا عن أنه على الشبكة العنكبوتية ، الإنترنت ، مواقع إباحية ،عربية وأجنبية ، جعلت هذه الكتب لا معنى لها !!

إذن فالمسالة ليست حفاظا على القيم ولا على الدين ولا غيره مما يدخل فى هذا السياق . هى مسألة شهرة للأسف لهذه الجماعة. والحزن أنه دائما على رأسها شيوخ اجلاء أو محامين يعرفون كل ما أسلفت .وفيما يخص ألف ليلة وليلة فالكلام معاد عن كونها كتاب تراثى مضى عليه أكثر من ألف سنة. وأنه أهم وأجمل وأعظم كتب الأدب العربى والشعبى التى أثرت فى آداب العالم ولا زالت تؤثر. وكيف كانت ترجماتها فى أوربا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر بداية لتطور جديد فى الآداب الاوربية ثم العالمية بعد ذلك .وإنه إذا كان هناك مشكلة فى ألف ليلة وليلة تبدو من الكلام الجنسى المستخدم بألفاظه الشعبية. فطبيعة ألف ليلة وليلة وتركيبها الفنى البديع لا تجعل قارئها يتأثر جنسيا بقدر ما يضحك ويندهش

من هذا العبث الشعبى الجميل واللطيف كما إنه بقدر ما فى ألف ليلة وليلة من جنس فيها أكثر عشرات المرات من الخيال والفلسفة والدين . ثم إنه إذا كان هؤلاء المنبرون دائما للدفاع عن الاوطان حيث لا يجب الدفاع . إذا كان هؤلاء يخشون على صغار السن الذين لن يقرأوا ألف ليلة من الأساس لصعوبة تكوينها فما رأيكم فى الأسرة والمدرسة التى يجب أن ترشد كل سن لما يقرأ ؟ أما إذا كان الخوف على البالغين فاللهم احفظ عقولنا من الانفجار فهل يستمع البالغون لنصائح أحد. ثم أنهم وهم القراء الحقيقيون لألف ليلة سيجدون الأحاديث الجنسية مثل الحواديت تضحك وتقدم الأمثلة الأخلاقية أيضا .كم قضية منذ السبعينات رفعت من أجل منع الف ليلة ولية وكلها خسرت واعتبرها القضاء لا معنى لها ؟ طيب لماذا تعود الأمور الى البدايات التعيسة دائما .الأمر يتجاوز حراسة الأوطان والناس الى الشهرة للأسف . حاجة ببلاش كده ! ياجماعة الخير أريحونا من هذا العبث . لقد ضقت باسئلة الصحافة كل حين عن رأيى فيما يفعله الشيخ فلان أو المحامى فلان بخصوص كتاب كذا أو كيت . لماذا لم ترفعوا قضية على من طالب بضرب المتظاهرين بالرصاص ؟ لماذا لم ترفعوا قضية لإطلاق حرية العمل للجمعيات الأهلية والأحزاب؟ لماذا لم ترفعوا قضية على المحليات والمحافظات التى لا تمنع الأذى عن الطرق فيموت كل يوم العشرات وربما المئات ؟ أشياء كثيرة أولى بالمحاكم والقضايا وآخرها الكتب فهل يقرأ أو يستمع أحد ؟ لا فائدة .اتذكر الآن ضاحكا حكاية الصياد فى الف ليلة وليلة حين وقف على شاطئ البحر وأكل بلحة كانت معه ثم ألقى بالنواة فى الماء فخرج له عفريت قال له لقد أصبتنى . النواية جت فى دماغى . يعنى واحد بيتلصم وبيرمى بلاه للأسف .

مصر ليست في المكان..

أسوأ كارثة تتهدد أى مجتمع هو أن يغرق فى مناقشة الحقائق الواضحة والبديهيات كأنها شيئ جديد لم يعرفه من قبل أو يمر به .وهذا هو حالنا فى مصر منذ أكثر من ثلاثين سنة . إذ فجاة ارتفع شعارمصر دولة اسلاميه كأنها كانت من قبل دولة هندوسية رغم إنه فى ذلك الوقت كانت شهرة القاهرة أنها مدينة الألف مئذنة ومدينة الأزهر وكان فيها أجمل اصوات المقرئين وكانت الاحتفالات الدينيه لا تنقطع ولم يكن ينقص مصر لتكون دولة إسلامية أى شيئ خاصة إنها كانت دولة لكل المصريين من المسلمين والأقباط الذين هم من سكان مصر الأصليين وليسوا من سكان المريخ ولا من بقايا الاستعمار. وكان المصريون يعرفون أن دينهم يوصيهم خيرا بأصحاب الديانات السماوية وأن الرسول نفسه أوصى المسلمين بمصر بالذات بالخير فمنها تزوج بمارية القبطية ومنها أنجب ابنه ابراهيم الذى فاق حزنه على وفاته أحزانه على من سبق ورحل من أبنائه وكانت مصر بحكم الموقع ملاذا لكل المضطهدين بصرف النظر عن ديانتهم فكان فيها اليهود أيضا المصريون منذ القدم والفارون من مذابح اوروبا عبر العصور فضلا عن البهائيين . بل وكان المصريون يحبون جيرانهم من الأجانب وخاصة الجاليات اليونانية والايطاليه والأرمنية رغم أن أغنياء هذه الجاليات وغيرها كانو يتمتعون بثروات البلاد وكان المصريون على العموم فى الدرجة الأقل لكن كان ايضا بين الأجانب من هم فى الدرجة الأقل. ومع هؤلاء قبل غيرهم كانت

العلاقات الاجتماعية قوية ووثيقة وكان المصريون يشهدون للأجانب بالدقة والنظام والأمانه فى التعامل وكل ذلك وغيره جعل من مصر دولة اسلاميه حقيقية (دون أن تعلن ذلك لا فى الدستور ولا فى القانون ولا فى الأدبيات السياسية والثقافيه) . كان المصريون يعرفون أن الدين مكانه القلب هم الذين سبقوا غيرهم فى البحث عن الآلهة ثم الإله الواحد وهم الذين سبقوا غيرهم فى التأكيد على يوم الحساب لأنه فى الدنيا يمكن أن ينفذ الظالم بألاعيب كثيرة من العقاب لكنه لن ينفذ عند الله يوم الحساب .يتعامل المصريون على طول تاريخهم مع الدين باعتباره منجزا أساسيا لهم ومنذ إنجازه وهم يضعونه فى المكان الذى وجد له وهو القلب مكونا الضمير لذلك كان المضطهدون من الأديان السابقة على الاسلام يجدون فى مصر ملاذا وكان المصريون يقولون لهم ليس هذا بجديد إنما هو بضاعتنا ردت الينا ,وكانت السنوات التى شهدت اضطهاد اصحاب الأديان الاخرى يقوم بها دائما حكام ليسوا مصريين . لكن لأسباب سياسية محضة أطلق الرئيس السادات صيحته بأن مصر دولة اسلاميه ليتخلص من قوى اليسار التى كانت أكبرالمعارضين له حتى فى صلحه مع اسرائيل ولم تقتله مثلما فعل الإخوان المسلمون الذين فك عقالهم متفقا معهم على الدور الذى يلعبوه. لكنهم طبعا أخلوا بالاتفاق حين تضخمت قوتهم وأكلوا صاحبهم . هو وهم لعبوا سياسة بالدين ولم يكن المصريون يعرفون ذلك اللعب وهذه الانتهازية .. يا الهى. واتجهت مصر شرقا صوب الجزيرة العربيه بعد أن كانت تتجه الى البحر المتوسط تأخذ منه أسباب الدنيا ولم تجد فى الجزيرة شيئا من أسباب الدنيا بل وجدت كل شيئ يؤدى الى الآخرة والعياذ بالله فليس فى الجزيرة العربية علم ولا صناعة ولا زراعة أعظم من مصر. لم يروا هناك الا الجلباب القصير وحف الشوارب وإطلاق اللحى والحجاب والنقاب ورجال الأمر

بالمعروف يطوفون بالأسواق يراقبون ملابس الخلق .ولا يفعلون ذلك مع الأجانب من أوربا مثلا. ويحثون الناس على الصلاة وإغلاق المحلات وغير ذلك مما يعرفه من شاء حظه العمل هناك وعرف أيضا ما يدور تحت السطح من معاص لكن المهم أن يبدو المظهر إسلاميا على الطريقة الوهابية وليس كما عرف المصريون الاسلام .ومرت السنون فتخلص السادات من خصومه اليساريين والعلمانيين وارتفع شأن الاسلام الوهابى ولم تنتبه الدولة الى الكارثة الا بعد أن راح هؤلاء جميعا يكفرون الناس المختلفين فى المظهر أو الرأى ويكفرون الأقباط وكان بعض الدعاة يصرخ فى الجامع طالبا من المسلمين أن لا يردوا سلاما للقبطى ولا يصافحونه (ودخلوا بالمجتمع الى نفق الفتنة الطائفية النائمة الان بفعل الأمن وليس بفعل العقل والاقتناع) واندفعت نخبة مستفيدة وجموع فقيرة ونصابون ما أنزل الله بهم من سلطان من رجال المال والأعمال رفعوا شعارات إسلامية على محلاتهم وغازلوا هذا التوجه الساذج للفقراء والجهلاء وغيرهم من كل الطبقات يواجهونك بوجوه مكتسية بالذقن وزبيبة على الجبهة فاذا اشتريت منهم أو بعت وجدت نفسك ضحيه فى أغلب الاحوال لعملية نصب واستحلال لمالك دون ما يناسبه لا أكثر ولا أقل ولذلك إذا كان يمكن تلخيص مصر الآن فى جملة فهى أكبر بلد عربى تسود فيه المظاهر الاسلاميه وأكبر بلد عربى يعانى من النصب والفساد والعنف والفتن القائمة والنائمة بين الناس الذين طالما عاشوا من قبل سعداء مع بعضهم . وبح صوت المستنيرين من المثقفين فى مقاومة هذا الجهل المتقنع بقناع الاسلام من ناحيه وهذا الاستحلال لكن بلا فائدة فالمدارس وهى البيئة الأولى للتربيه سيطر عليها مدرسون يرفعون شعارات الاسلام الشكلية ويشجعون التلاميذ على التزويغ ليتلقفوهم فى الدروس الخصوصية فانتهى التعليم وفسد ووجدت أيضا الدولة فى ذلك راحة لها للأسف . تصور أنت

دولة فسد فيها التعليم فماذا تنتظر لها غير التأخرالعظيم .

لقد انتهى الفهم المصرى الجميل والأصيل للدين وللإسلام لذلك عندما يأمر مسؤول بمنع النقاب تقوم الدنيا رغم أن الهيئة الدينية التى منعته أجمع فقهاؤها على أنه ليس من الاسلام . هل كنا كفارا بعد ثورة ١٩١٩ وحتى منتصف السبعينات مثلا؟ لكن هنا اختبار قوة وفعل سياسى عند النخبه التى ترفع شعار الاسلام وجهل تورط فيه العامة المساكين ونصب علنى يمارسه دعاة وشيوخ فى محطات فضائيه يجمعون ويكنزون من ورائه الملايين لا للإسلام ولكن لخراب البلد العظيم الذى هو مصر . والمدهش أن مناصرى النقاب يصرخون الآن أنها حرية شخصية وأن ماحدث هو اعتداء على هذه الحرية . طيب هل تتركون الناس أحرارا فى ملبسهم ؟ هل تتركون غير المحجبة حرة ولا تتهموها بالفسق والعهر وعشرات الألفاظ المنحطة يصرخ بها شيوخ الفضائيات المأجورين ؟أم تبيحون جسدها للغوغاء حتى أصبح التحرش بها والاعتداء عليها عملا من أعمال الإسلام لإنها يجب ان تقرّ فى بيتها . تصور يا عزيزى أن مصر الآن تناقش النقاب بعد خمسة الاف سنة من اكتشاف المصريين للآلهة والحساب وبعد أكثر من ثلاثة الاف عام على أول توحيد على الأرض .تستطيع أن تعرف أين هى مصر الآن ومن الذى ذهب بها الى هذا المكان.

في انتظار البرابرة

«قسطنطين بيتروس كفافيس الذى مات فى الأسكندرية مساء التاسع والعشرين من ابريل عام ١٩٣٣ ودفن بها. شاعر متفرد لا يضارعه من شعراء وطنه أحد»

هذا كلام الدكتور نعيم عطية، الذى ترجم لنا أشعاره عن اليونانية . كفافيس الذى اكتشفته أوروبا قبل أن نكتشفه نحن بأكثر من نصف قرن، والذى صار منذ ترجمت أشعاره الى الانجليزية، علما خالدا على الشعر العالمى وعلى مدينة الأسكندرية. لقد أمضى سنواته الخمس والعشرين الأخيرة فى شقته فى شارع ليسبيوس الصغير المتفرع من شارع فؤاد . صارت شقته متحفا له. مقتنياته وآثاث شقته وأضيف الى ذلك أيضا شيئ من مقتنيات الكاتب اليونانى السكندرى الروائى تسيركاس صاحب ثلاثية «مدن جامحة». لا أعرف من الذى غير اسم الشارع الى شرم الشيخ، أو أعرف انها محافظة الاسكندرية واندهش . كان الأولى ان يتغير الى كفافيس مثلا أو يظل كما هو يحمل اسم ليسبيوس أحد المعماريين الكبار يوما ما فى الاسكندرية .ما علينا . ليس مهما تكريم شاعر يونانى ولا روائى ولا مهندس رغم أنهم سكندريون وليس مهما اسداء بعض الجميل للجالية اليونانية صاحبة الأثر الكبير فى الحياة المصرية قديما وحديثا. نعود الى كفافيس العظيم صاحب القصائد التى تتجاوز الأزمنة والأمكنة ولا يمل القارئ منها. تأخذك معانيها إلى السموات العلى. وتستحق كلها أن تعلق على الجدران . قصيدته

فى انتظار البرابرة واحدة من عيون شعره رغم إنها من أوائل كتاباته فاقرأها وانظر كيف ستكون بعدها أو كيف ستفكر .

١- ما الذى ننتظره فى السوق محتشدين ؟

٢- إن البرابرة يصلون اليوم.

٣- وفى مجلس الشيوخ، لماذا هذا الإعراض عن العمل ؟ لماذا جلس الشيوخ لا يسنون التشريعات ؟

٤-لأن البرابرة يصلون اليوم ، وما الجدوى أن يسن الشيوخ التشريعات مادام البرابرة عندما يحضرون سيسنون هم التشريعات !

٥- لماذا صحا امبراطورنا مبكرا هذا الصباح وجلس عند البوابة الكبيرة فى المدينة على عرشه مرتديا تاجه وزيه الرسمى ؟

٦- لأن البرابرة يصلون اليوم، والامبراطور فى الانتظار ليستقبل رئيسهم، بل وأعد الامبراطور العدة كى يمنحه شهادة فخرية يضفى عليه فيها رتبا والقابا .

٧- لماذا خرج قنصلنا والحكام اليوم فى مسوحهم الحمراء الموشاة ؟ لماذا لبسوا أساور ذات جواهر براقة ؟ لماذا يمسكون اليوم عصيا سمينة مزينة بالذهب والفضة ؟

٨- لأن البرابرة يصلون اليوم ، ومثل هذه الأشياء تبهر البرابرة .

٩- لماذا لا يجيئ الخطباء المفوهون مثل كل يوم ليلقوا خطبهم، ويقولوا ما ألفوا أن يتشدقوا به ؟

١٠ - لأن البرابرة يصلون اليوم ، وهم يملّون من الخطب وتضجرهم

البلاغة .

١١- لماذا يبدو فجاة هذا الانزعاج وهذا القلق ويرتسم الجد على الوجوه ؟ لماذا تقفر الشوارع والميادين بسرعة ويعود الجميع الى بيوتهم وقد استبد بهم التفكير ؟

١٢- لأن الليل قد أقبل ولم يحضر البرابرة . ووصل البعض من الحدود وقالوا أنه ما عاد للبرابرة وجود .

١٣- ماذا سنفعل الآن بلا برابرة ؟ لقد كان هؤلاء الناس حلا من الحلول.

انتهت القصيد ة. يا خسارة ! على القصيدة طبعا. وإن كان فى بعض الأحيان على البرابرة الذين كانوا حلا من الحلول لم يتحقق.

المحتويات

تقديم متأخر.......... ٧
النسيان.......... ٩
مجنون فى ميدان عبده باشا.......... ١٣
الترسانة البحرية .. وزجاجة السادات.......... ٢١
ساعة الإفطار.......... ٢٧
خطابات الغرام هل تتذكرونها؟.......... ٣١
شجرة شارع قصر النيل.......... ٣٥
الأكل وسنينة.......... ٣٧
يناير ٧٧.. ليلة القنبلة.......... ٤١
ليلة من الماضى الجميل.......... ٤٧
التصوير ممنوع فى الأسكندرية.......... ٥١
فى الطريق إلى بلد البنات.......... ٥٥
أسئلة الحلاق وإجاباته.......... ٥٩
المرأة التى لا نعرفها.......... ٦٣
فى المسألة الكروية .. اين الأفيون؟.......... ٦٧
أهلنا النوبيون.......... ٧١
حقوق الأقباط وحقوق الوطن.......... ٧٥
لا أحد .. وما جرى فى نجع حماد.......... ٧٩
بهدلة ٣٠ مليون مواطن.......... ٨٣
مرة أخرى عن مهزلة الضرائب العقارية (البدلة واللباس).......... ٨٧
أسطوانات .. اسطوانات.......... ٩١
هذه الإكتشافات.......... ٩٥
ليه اتحاد العمال وليه وزارة الإعلام؟.......... ٩٩
حق الله.......... ١٠٣
انا والفتاه والسنجة.......... ١٠٧
الفتوى بين الجد وجلسات الحشيش.......... ١١١
شيخ الأزهر الجليل.. والانتخاب.......... ١١٥

البحث عن رئيس ١١٩
هذا الهجوم على العقل .. شعبان والمعارضة ١٢٣
الدولة المركزية.. المأساة المقبلة ١٢٧
أكتوبر ٧٣.. الصور الغائبة ١٣١
جلابية وطرحة ١٣٥
إسدال ١٣٩
السبت فات والحد فات ١٤٣
رسالة حدائق الشيطان إلى الله ١٤٧
ثلاث مرايا لفقيد الوطن أحمد عبد الله رزه ١٥١
شهداء المسرح ١٥٥
العروس التى زفت نفسها إلى الموت ١٥٩
نهر أسامه البحر ١٦٣
الليل ١٦٧
الشتاء ١٧١
الوقت ١٧٥
أهمية ان تشترى مقشة وتبطل تعيط ١٧٩
سرير بروكست ١٨٥
درس سقراط المنسى ١٨٩
ألف ليلة وليلة.. تاااانى...! ١٩٣
مصر ليست فى المكان ١٩٧
فى انتظار البرابرة ٢٠١

للمؤلف

أولاً :الروايات

١-فى كل أسبوع يوم جمعة
الدار المصرية اللبنانية الطبعة الثالثة ٢٠١٠

٢-شهد القلعة — الدار للنشر ٢٠٠٧

٣- عتبات البهجة — دار الشروق الطبعة الثانية٢٠٠٥

٤-بُرج العذراء — دار الآداب ٢٠٠٣

٥-طيور العنبر — دار الهلال طبعة اولى٢٠٠٠
دار الشروق طبعة ثالثة ٢٠٠٩

٦-لا أحد ينام فى الأسكندرية — دار الهلال طبعة اولى ١٩٩٦
دار الشروق طبعة تاسعة ٢٠٠٩

٧- قناديل البحر — دار سعاد الصباح الطبعة الولى ١٩٩٢
دار الشروق الطبعة الرابعة ٢٠٠٦

٨- البلدة الأخرى — دار رياض الريس الطبعة الاولى ١٩٩٠
دار الشروق الطبعة الخامسة ٢٠٠٧

٩-بيت الياسمين — دار الفكر العربى الطبعة الاولى ١٩٩٦
الطبعة الخامسة دار الشروق٢٠٠٦

١٠-الصياد واليمام — مجلة الكرمل عدد-١١
دار المستقبل الطبعة الولى ١٩٩٥
دار لشروق الطبعة السابعة ٢٠٠٦

١١-المسافات — دار المستقبل العربى١٩٨٣
دار الشروق الطبعة السادسة ٢٠٠٦

١٢-ليلة العشق والدم
مطبوعات القاهرة- الطبعة الاولى١٩٨٢
دار الشروق الطبعة الرابعة ٢٠٠٦

١٣-فى الصيف السابع والستين
دار الثقافة الجديدة الطبعة الاولى ١٩٧٩
دار الشروق الطبعة الثالثة ٢٠٠٨

ثانياً : القصص القصيرة .

-مشاهد صغيرة حول سور كبير وزارة الثقافة السورية ١٩٨٢
هيئة الكتاب ١٩٩٤
٢- الشجرة والعصافير مختارات فصول هيئة الكتاب ١٩٨٥
مكتبة الاسرة ١٩٧٥
٣-إغلاق النوافذ
هيئة الكتاب - محتارات فصول ١٩٩٢
٤-فضاءات
مختارات سلسلة أصوات أدبية - الثقافة الجماهيرية ١٩٩٢
مكتبة الاسرة ٢٠٠٣
٥- سُفن قديمة
دار ميريت للنشر ٢٠٠١
مكتبة الاسرة ٢٠٠٢
٦- ليلة الجيلا مختارات
مكتبة الاسرة ٢٠٠٣

ثالثاً : كتب متنوعة :

١-مذكرات عبد اميركى ترجمة عن الانجليزية . تاليف فريدريك دوجلاس . دار الشروق ٢٠٠٧
٢-٢٤ ساعة قبل الحرب مسرحية - المجلس الاعلى للثقافة ٢٠٠١
٣-اين تذهب طيور المحيط.. أدب رحلات
مكتبة الاسرة ٢٠٠٩
٤-غواية الاسكندرية مكتبة الاسرة ٢٠٠٥
٥- ما وراء الخراب كتاب الهلال ٢٠٠٨

الجوائز :

١- جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الامريكية ١٩٩٦
٢- جائزة الدولة للتفوق فى الاداب ٢٠٠٤
٣- جائزة الدولة التقديرية فى الاداب ٢٠٠٨

رابعاً : الترجمات الى لغات اجنبية :

١-البلدة الاخرى.

الى الفرنسية -دار آكت سود ١٩٩٤-ترجمة كاترين تسيبه توماس.

الى الانجليزية ١٩٩٧ قسم النشر بالجامعة الامريكية -ترجمة فاروق عبد الوهاب.

الى الألمانية -دار ارابش بوك -ترجمة منى النجار.

٢-لا أحد ينام فى الأسكندرية

الى الفرنسية -٢٠٠١- دار ديسكليه دى بروبير - ترجمة سهير فهمى.

-الى الانجليزية - قسم النشر بالجامعة المريكية ١٩٩٩ -ترجمة فاروق عبد الوهاب .

٣- بيت الياسمين

الى الفرنسية - دار آكت سود -ترجمة نشوى الأزهرى.

الى الإيطالية ٢٠٠١ - دار نشر جوفينس -ترجمة فرانسيسكو دى الجليس

٤- طيور العنبر .

الى الإنجليزية ٢٠٠٦ قسم النشر بالجامعة الأمريكية ترجمة فاروق عبد الوهاب

٥-المسافات

الى الإنجليزية ٢٠٠٦ - جامعة سيراكيوز - ترجمة حسام ابو العلا

٦-عتبات البهجة

الى الفرنسية -دار نشر فولى دونكر - ترجمة هدى فوركاد

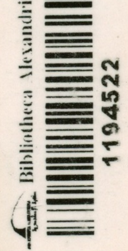
الى اليونانية ترجمة بيرسا باموك

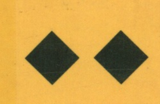
موقع الكاتب على الأنترنت : www.shorouk.com/abdelmeguid

بريد الكاتب الالكترونى : Ibrahimabdelmeguid@hotmail.com

السبت فات والحد فات وبعد بكرة يوم التلات، أغنية شهيرة للمطرب الجميل الراحل محمد عبد المطلب ،والسؤال هو في أي لحظة من الزمن يقف ويعلن ذلك بصوته القوى الملئ بالشجن ،رغم ما يبدو عليه من ارتفاع في النبرة؟

لابد أنه يغنى يوم الإثنين ؛لأنه يقول الحد فات، وفى هذه الحالة «لا يكون بعد بكرة يوم التلات» اذن هو يغنى في لحظة من الزمن بين الاحد والاثنين. ولا توجد خارج الزمن أي لحظات. اذن «هو يغنى خارج الزمن» هذا هو التفسير الوحيد ،وهذا حال حياتنا فى مصر
اذن جادة ،ولكن الحقيقة مسخرة..







إبراهيم عبد المجيد روائي مصرى كبير ،صدرت له روايات رائعة حجزت مكانها فى الأدب العربى ،وترجمت كثير منها إلى لغات عديدة ،وحصل على جوائز أدبية رفيعة آخرها جائزة الدولة التقديرية في الآداب. وإبراهيم عبد المجيد كاتب دائم فى الصحافة المصرية والعربية فى الأدب والفنون ،ومشتبك أصيل مع قضايانا السياسية والفكرية والاجتماعية